

رواية

الراية

الحسن البخاري



فصلة

للتوزيع

إهداء . . . !

إهداء إلى طفلة شامية، سمعت زئير القصف . . هرعت إلى ساق أمها . . عانقتها معتقدة بها، لكنّها صدمت لما وجدت أمها أضعف من العبوات الناسفة!

إهداء إلى من راقب زهرة الربيع العربيًّا أملاً في غد أفضل . . ثم ماتت الزهرة قبل أن يفوح عبيرها . . وخابَ أملُه !

إهداء إلى أسطر كتبتها . . ثم حذفتها . . ربما أكون أشجع في مرة قادمة . . إن كان ثمة مرة !

الفصل الأول

الشام وطن الظالم والمظالم ، الثورة المجيدة العادلة المطلوب ليست بالضرورة ناصرة الحق ، الأرض تهدا بعد مرور العاديات ، والماء يأسن بطول المكث .. ويا لجمال الحرية مالم تكن سلعة للتجارة فالربح ، المزايدة بحبها ، التبشير بثمارها ، التخويف من آثارها .. وقمر عرشه السحب ، يرى ما لا ترون ، أتراه يشهد بما رأى إن سئل ؟ أم يودع ضميره حيث أودعه العرب؟! استدار البدر مكتملاً فتساءلت الحشائش عن الهلال ! ، وأجابت هواه الليل أن البدر -مع بهاء مظهره- إلا أنه قاتل خسيس ، لا يتم له بهاوه إلا باغتيال الهلال ودهس جثته ، ولأن الحياة دار عجائب يتغزل الناس بالقاتل ، ويسبحون بحمده ، ويحلفون باسمه ، ثم هم في غفلة عن المقتول !

خشخاش على الأرض تكاد تشي بالزاحفين ، يُسرى بهم بالليل ثعابين بين الركام ! على ظهورهم البنادق

كأنها ذيل عقرب ، تخفيهم الحشائش عن كل عين اللهم
إلا عين القمر .. أثراء يشهد ؟!

تخفي الحشائش قتلة في الأرض وتلعن قاتلاً عند
السحب ! واهما للمقادير ..

التفت أبو قنادة إلى قائده أبي القعقاع وسأله :

- كم بقي من الوقت لنصل ؟

تأمله أبو القعقاع هنية .. عشريني بتتقاسيم كهل ،
سكوت خفوت .. له عينان تذودان عن ذكرى تخنقها
يداه إذ تقبض على رشاشه ، تعرفه في لحن بسمته ،
في شرداً مقلته ، في صرخات همسه ..

أجابه أبو القعقاع بحزم :

- تابع الزحف .

لاحظ أبو دجابة كلامهما فقال :

- ألم نجد سوى ليلةً بدرية لنbagت عدونا ؟ نحن
مكشوفون !

التفت إليه أبو القعقاع وقال بعد أن أبدى له امتعاضاً :

- إن جندنا لهم الغالبون .

بدا على ملامح أبي دجابة عدم الرضا عن الإجابة ، إلا
أنه أنسد يقول :

- ألا أيها الليل الطويل ألا إنجلي .. يصبح وما الإصباح
منك بأمثل

فداعبه أبو العباس قائلاً :

- ستموت وأنت تنشد الشعر .

- تقول هذا لأنه ليس عندكم شعر في روسيا !

قاطعهما أبو القعقاع مغضباً وقال بهمس شديد :

- صمتا ! تابعا الزحف ..

وكان أبو قتادة وقتها غارقاً في أفكارٍ زارتة بلا سبب ، وذكريات راودته بلا مناسبة .. جهاد مسعود ، مصطفى الشريف ، ياسر عبدالله! فاكتفى بالنظر إليهم متأنلاً ، ثم الصمت ومتابعة الزحف .

مرت ساعة حتى صاروا برمي حجرٍ عن العدو ، عدو غافل إلا جندي حراسة ليلية يرقبان الظلام الدامس متفحصان أي حركة فيه، أبنية مهدمة أضواؤها صفراء خافتة، كان ساكنيها أشباح أو شياطين، وحولها الحشائش من كل جانب تكاد تتبعها، ولا صوت إلا ضحكات قليلة تنبئ بسمير وغفلة، أشار أبو القعاع صامتاً ، فتقدم أبو قتادة وصوب قناصته كاتمة الصوت- ذات الصناعة الأمريكية- إلى الجندي الأول ، وفي لحظة خرّ صريعاً مجندلاً بدمائه ، وقبل أن يستوعب الثاني الموقف استقرت رصاصة أخرى بين عينيه فأرده . ثم تسلل المقاتلون بين الحشائش مناسبين، انسياق الماء عند المد بين ركام السفن على الشاطئ ، ولما صاروا بعيداً أمتاراً أطلق أبو القعاع الرصاصة الأولى فانقض الجميع على مرقد العدو

مكبرين يتصايرون . فزع العدو لهول المفاجأة !
 فانتفضوا يكبرون هرعين إلى أسلحتهم .. تصارعت الرصاصات وتلاحمت الأبدان وغاصت الخناجر في الحلوق عند الاقتحام , واختلطت صيحات التكبير من الجانبيين .. الله أكبر الله أكبر ! وفي الشام ترى عجباً ويرى الناش ما لا يُرى !

مضت دقائق من القتال والتصارع تحت أجحة الليل حتى استتب الأمر لسرية الفاروق بقيادة أبي القعقاع , وصار الجيش الآخر بين قتيل وجريح وأسير .. وفي زهو النصر وارتفاع الأصوات بالفرح والتفاف الجنود حول قائدتهم المظفر , وعلى حين غفلة من الجميع , رفع أبو قتادة مسدسه وصوبه ناحية قائد أبو القعقاع , مسرعاً ومتوتراً وضع إصبعه على الزناد .. رأه أحد الجنود فانطلق يعود نحوه كالسهم , ثم انقض عليه فأدرك يده مع لحظة إطلاق الرصاصة , بالكاد اهتزت يده .. أصابت الرصاصة أذن القائد ثم تابعت طريقها .. ذهل الجميع وحلت لحظة من الصمت المتفجر بالتساؤلات , والتفت أبو القعقاع خلفه حيث

استقرت الرصاصة ليجدها في رأس مقاتل من جيش العدو كان قد اختبأ خلف جدار ويستعد لاغتياله ! سريعا انقض الصمت كما انعقد ، وعلى عكسه استمر العجب .. توجه أبو القعقاع إلى أبي قتادة مذهولا ، واحتضنه ، ثم قال له :

- لم يخب ظني فيك مرة منذ عرفتك .

واكتفى أبو قتادة بالصمت والابتسام ، والنظر إلى الجندي الذي دفعه ظانا أنه سيغتال قائد ، بينما سارع الجند بتضميم أذن قائدهم ، وأقبل أبو دجانة وأبو العباس صديقاه يهنئانه مرة على نصرهم ومرة على إنقاذه للقائد .

بالفجر عاد الجند المنتصرون إلى ثكناتهم منهكين ، كل يبحث عن الراحة، وتختلف طرق الراحة باختلاف الناس ، فمنهم الذين يرتاحون بعناق وساداتهم والنوم، ومنهم الذين يرتاحون بمداعبة الماء لأجسادهم عند الاستحمام، الاستحمام بالطريقة البدائية بعدما فسدت البنية التحتية للمياه والكهرباء في حلب، ومنهم الذين يرتاحون بتلاوة القرآن، وللعشاق طريقة واحدة للراحة لا ثاني لها .. الأنس بمعشوّقهم والقرب منه !

فما كاد أبو قتادة يضع ملابس المعركة ويغتسل اغتسالا سريعاً يعيد نشاطه إلا واندفع إلى حاسوبه اندفاع سmekة في الماء بعد انتزاعها منه ، بلهفة فتح حسابه على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك وفوراً أرسل رسالة لجهاد :

- اشتقت إليك

رقص فؤاده طرباً لما رأها تكتب له ، وتساءل كم هو مليء بالتناقضات ؟!

ردت جهاد:

- انتظرتك طويلاً! أين كنت؟!

- تعلمين أنني كثيراً ما أتأخر في عملي ، ويعلم الله أنك لم تغيبي عن خاطري لحظة.

- أنا أيضاً اشتقت إليك، لكن لا أدرى إلى متى !!

- إلى أن يرزقني الله من عملي ما أستطيع به أن أستعد للزواج وأتقدم لك.

صمت قليلاً ثم تابع:

- أتعلم؟ بينما أنا منهمك في العمل تذكرة أيامنا الأولى، يوم رأيتكم أول مرة!

وقال لنفسه كم أود أن أرى ابتسامتها الآن، هلا كانت هذه المواقف قادرة على نقل المشاعر قدرتها على نقل الأحرف.

أجابته مسرعة:

- حقا؟! كيف؟ احك لي.
- تذكرت لما اصطحبني د. مصطفى إلى عيادة د. ياسر لأتعالج من الإدمان، وكيف كنت يومها جالسة على كرسي السكرتارية كملكة على عرشها!
- ههههه لا تبالغ!
- لم أبلغ، أتذكرين كيف اختطفت قلبي يومها؟!
- لم أفعل شيئاً، أنت تتهمني بالباطل لأنك فاشل في التحكم بقلبك.
- بل فعلت أيتها السارقة الصغيرة، وسرقت قلبي.
- هاك هو، خذه إذن!
- لا أستطيع.
- ههههه أرأيت؟ أنت الجاني على نفسك.

صمت لحظة يتذكر مصطفى الشريف، ترى في أي بقعة وصيف هو الآن في خضم هذا العبث؟!

ثم قال لجهاد:

- هل سمعت شيئاً مؤخراً عن د.مصطفى الشريف؟

- لا، لماذا؟

- لا أدرى، أشعر أنني بحاجة إلى الحديث معه

غريبة !-

- ليس غريباً ، إن له في عنقي منه لا أستطيع ردتها له، تعلمين أنني كنت مدمناً شرهـاً لا أكاد أفيق، حتى هداني الله به.

- أتريد أن تستفزني بتذكري بعلاقاتك النسائية القديمة؟!

- لا والله يا عمري، بل إنني يوم رأيتكم نسيتها كلها.

- حقاً؟! وما أخبار دبي؟ أظنك مرتاحاً للعمل هناك كثيراً، وأتساءل إن كانت رؤيتك لي قادرة على غض طرفك عن الفتيات عندك!

تبسم متوجهاً من سرعة انفجار غيرتها وقال لنفسه : آه من النساء ، ثم قال:

- ماذا تريدين يا جهاد؟

- أريد أن أراك يا محمد، الشوق أهلكني!

- قريباً يا نور عين محمد.. قريباً.

ثم تابع :

- أتعلمرين؟ .. كم أود أن ترى نفسك بعيوني ، لتأكدني أنه لا يمكن لمن فتنته أن يرى غيرك من النساء.

- لا حرمني الله من عينيك.

انقضت ساعات الغزل سريعاً رغم طولها، وقال لنفسه ليتها تمضي ببطئ ساعات الزحف بين الحشائش، ثم

انتبه أنه لم ينم والشمس تكاد تستقر في كبد السماء،

بحث عن حساب مصطفى الشريف ثم أرسل له رسالة:

- السلام عليك.

وخلد للنوم بعد صراع سريعم ضميره، صراع نشب حول علاقته بجهاد التي تكاد تأكل حسناًت جهاده في سبيل الله ، وخداعه لها بأنه يعمل في دبي، وتمنيته لها بعش الزوجية قريباً رغم أنه لا يعلم متى ستكتف رقبته عن حمل رأسه، وشأن هذه الصراعات مع الضمير أن لا تكون سريعة، بل طويلة ساحقة مؤلمة، إلا أن تكرارها المستمر يكسبها سرعة ويورث النفس بلادةً فلا تشعر بألمها.

في الشام تتدثر الحقيقة بدتار العيت، يناديها الضمير: يا أيتها المتدترة، فتجيب: لا لبيك ولا سعديك. في الشام يفقد الموت هيبيته، وزيارة ملك الموت كأنها صلة رحم، والرصاصات الفارغة عرائس الأطفال. في الشام

لم تعد شام، لم تبق إلا طرق مزدحمة، ازدحمت بحطام المنازل وافتقدت ازدحام البشر، لم تبق إلا أصوات لضحايا كانت هنا يوماً، وبتردد الصدى بين الجدران استحال صراغاً عنيفاً. ولو تسنى لنا نظر أن ينظر من أعلى لوجد الرصاصات متتشابكة تشابك خيوط العناكب، لا يكاد رجل يحوز سلاحاً إلا ويعمله في الباقيين، وبين المطرقة والسدال ثمت شعب يصرخ فتأتي صرخاته -لسوء حظه- على موجة صوتية يعجز العالم المتيم بحقوق الإنسان عن التقاطها، والشعب المجرم لا يكف عن الصراخ! يا الوقاحة الشعوب.

بلدة الحضارة صارت مقبرة الركام والهدم والآلام، وسماؤها المضاءة بالمصابيح صارت مضاءة بقنابل الفسفور، أدمى الأطفال أصوات القصف، وأدمى الآباء بكائهم وصراخهم، ينامون على بيت ويصبحون على هدم .. إن أصبحوا !

دخلت بيان بخفة إلى الغرفة ، وأغلقت الباب من خلفها وهي تغبني :

يا حلوة يا خزاعية

مثل الشمعة المضوية

وجهك كأنو البدر

في السما العاليه

التفتت خلفها ونظرت إلى رهى مبتسمة ابتسامة لا
تخلو من مكر الفتيات ، ثم قالت :

ماذا ؟

تورد خدا رهى ، وابتسمت وقالت متلعثمة

ماذا مازا !

ضحكت بيان بأنوثة ثم قالت :

ألم تطلبي أن نتحدث على انفراد ؟

زاد خجل رهى ونظرت إلى الأرض ، وتعجبت بيان من
شبههما ببعضهما ، وقالت لنفسها : يا بخت أخي أحمد

بكِ ، ثم قالت لها :

حسناً ، أعلم أنك تريدين أن تتحدثي معي بشأن زواجك من أخي بعد أسبوع .

صمتت فلم تتكلم رهى ، فتابعت :

هلا كففت عن هذا الخجل ! لم أر عروساً تخجل من ابنة خالتها وصديقة طفولتها !

أجبتها رهى متلعثمة :

الأمر فقط أنني متواترة .

تأملت بيان عينيها الخضراوين كجبال سوريا الخضراء على جوانب الطرقات عند السفر، وللحظة استنشقت منها رائحة شوارع حلب العتيقة ، وسمعت في أنفاسها -على هدوئها- ضجيج الأسواق .. أسواق حلب ، يوم كانت حلب !

وقالت :

أخي يحب التلقائية ، فقط تصرف في على طبيعتك
 وسيكون كل شيء بخير .
 أتمنى ذلك !

تأكدني أنه مع خديك المتوردين سيكون كل شيء بخير .

ابتسمت رهى مستحية وبحركة عفوية ضربت كتف صديقتها ، ثم نظرت لأعلى واستنشقت من هواء الغرفة المثقب وقالت :

كم أحببته مذ كنا صغاراً !

ضحكـت بيـان وقـالت مـداعـبة :

من كان يدرـي أن يوم سـعدـكـما سيـكون وـأنتـما نـازـحانـ فيـ فـيـلاـ مـتـطـرـفةـ فيـ حـلـبـ يـبعـدـ موـاضـعـ القـصـفـ فيـ المـدـيـنـةـ ؟ـ

صـفتـتـ رـهـىـ حـزـينـةـ تـخـفـيـ حـزـنـهـاـ،ـ تـنـفـحـصـ جـدـرـانـ
الـغـرـفـةـ بـعـيـنـيهـاـ،ـ وـتـتأـمـلـ حـالـهـاـ وـحـالـ منـ معـهاـ،ـ فـيـ فـيـلاـ

على أطراف حلب، بيضاء مشبعة بالتراب، كأنها عروش سقطت في الوحل عند زفافها، تحيطها أشجار البلوط وتدنو إليها تحتضنها، كانت مهجورة قبل أن يأتوا، تستعمرها الحشرات والفئران وربما بعض الضفادع!، وغاية الأماني أن تナم رهى على فرشة فوق البلاط يلحفها البرد ولا ينقذها إلا غطاء كالكف، وتشارك بيان أمها فراشاً قديماً وصل إليهم بعد مغامرة!

لا تقاد الكهرباء تصل إلا بشق الأنفس، بعد مفاوضات مع الأسلاك المتشابكة ورجاء لها أن تعمل .. ومع زيادة الضغط تحرق الأسلاك وتتلف، فتبدأ رحلة البحث عن غيرها، والماء لا سبيل إليه إلا دلو وبئر، يملأ به خزان الفيلا كل صباح، ويقتصر لثلا ينفذ!، ورغم صفار لونه وتنن ريحه إلا أنه يفي لري العطش والطبخ، والاستحمام حين تقدر على اختلاس الفرصة !

وكل ساعة تنتزع أرواحهم من بين ضلوعهم حين تنفجر قذيفة على بعد كيلو متراتٍ فيدوّي صوتها بين جدرانهم! وتدوي بعدها أصوات الأطفال مرتعدين تتلاطم قلوبهم! ثم؟ .. إن الحياة تمضي ولا تتوقف!

أفاقت رهى من أفكارها وردت مبتسمة :

ربما سأعتبر أصوات القصف جزءاً من مراسيم الحفل .

حلت لحظةٌ من الصمت المعبأً بالمعاني ، صمت يحل إذا ضجّت الصدور بالكلمات ، يحلُّ قسراً ويذهب بشق الأنفس ، مزقته بيان فقالت :

سنفرغ لكما حجرة في الفيلا لمدة ثلاثة أيام .

ثم ضاحكة :

لا تحلمي بأكثـر من ذلك ، هناك أربعون شخصاً في هذه الفيلا الموقرة .

و قبل أن ترد رهـى ، ظـرق الباب ونادـت من خلفـه أم بيان :

بيان .. رهـى .. هل أنتـما بخـير ؟

ردـت بيان :

بخير يا ماما .

ماذا تفعلان ؟

ضحكـت بـيـان بـحـذـر ثـم قـالـت :

كـلام بـنـات يـا دـنـدون !

ضرـبـتها رـهـى فـي كـتـفـها ثـانـية ، بـيـنـما دـهـشـت أـم بـيـان ،
وـسـرـيـعـا حـلـقت إـلـى قـبـسـ من المـاضـي ، دـنـدون ! يـاـللـه !
كـدـثـ أـنـسـى أـنـ اـسـمـي دـانـيـة لـكـثـرة ما أـنـادـى بـأـم مـالـكـ ،
كـدـتـ أـنـسـى نـبـرـتـكـ أـيـها الـحـبـيـبـ وـأـنـتـ تـنـادـيـنـي بـدـنـدون
وـأـبـنـاؤـنـا حـولـنـا يـتـقـافـزـونـ كـالـأـرـابـ !

نـظـرـتـ إـلـى تـجـاعـيـدـ يـدـها مشـفـقةـ وـقـالـتـ : هـيـسـيـهـ يـاـ أـمـ
مـالـكـ !

ثـمـ بـصـوتـ مـتـعبـ :

هـيـاـ يـاـ بـنـاتـ ، الرـجـالـ سـيـعـودـونـ عـصـرـاـ مـتـعـبـينـ
يـحـتـاجـونـ الطـعـامـ ، وـالـيـوـمـ يـوـمـ التـنـظـيفـ .

قالت بيان :

دقائق ونلحظ بك .

وتذكرت أن الليلة موعد عودة أخيها مالك من الجبهة ، فانتفض فؤادها طر Isa ، وقف أمام مرآة قديمة في زاوية الغرفة متأملة آثار نصرة النعيم على وجهها ، ثم

قالت لرهى :

الليلة يعود مالك .

سلامة وعافية إن شاء الله .

ثم قامتا لتنظيف الفيلا ، كم تغيرت حيوات الناس بعد ما كان ، أولئك المدللات في خدورهن صرن يحملن هم التنظيف بأيديهن الناعمة قبل أن يعود الرجال الذين يذهبون كل يوم إلى منتصف المدينة تحت القصف ليجلبوا ما تصل إليه أيديهم من مؤن ومتاع في بيوتهم القديمة وأسواقهم ، ثم يعودون بالليل منهكين يستعدون لرحلة الغد ، رحلة الموت !

ولأننا في سوريا فلا شيء أكثر من بكاء الأطفال من
وطأة البرد، مع قلة حيلة الكبار لانعدام الدواء !

تخلط صرخات الألم آيات اليم وصرخات
الجوعوز فرات الحزن !

يندر الماء وتنعدم الكهرباء فالدفء ، وتعجز أم عن
إسكات رضيعها حين يقسم صراخه بأنه يتآلم ! لسان
حالها: مُت يا صغيري فالله أرحم بك منا !

تخجل السحب لعجزها فتبكي مطرًا، يذهب الغبار ولا
يذهب الذكريات، لا يذهب دبيب الحياة تحت أنقاض
الركام، لا يذهب تباريحة الزمان على وجوه العجائز
، وصوت الزمان الذي يحكى عن سوريا، سوريا،
العروض، سوريا الألم والحسرة!

مت يا صغيري، واشك إلى الله قلة حيلتي.. وهواني
على الناس

مت يا صغيري، وأبن سوريا في الجنة، وأملأها
بالعصافير !

مت يا صغيري ولا تعد، لا تعد .. لا تعد فسوريا التي
نعرفها لن تعود !

فلا ننا في سوريا :

يختار الموت في الناس، أيختنقهم بالجوع أم بالحصار
أم بالبرد أم بالمرض؟! أم بالدفن تحت حطام المنازل
بعد مرور طائرات الموت؟! أم حرقا بعد القذائف
المحرمة دولياً؟! أم خنقا بعد الأسلحة الكيماوية؟! أم
بالنزيف الحاد عند انعدام الاسعافات !

خرجت طفلاً من تحت الركام فوجدت أنها الناجية
الوحيدة في عائلتها، فوَدَت لو عادت لأحضان الحطام!

وتبسم طفل لما رأى ساقه بُترت! آآآه من ذاك الابتسام!

ذهبت بيان للحمام لغسل الملابس ، وما كان لأظافرها
أن تُقْحِم في مثل هذا ، وشاركت رهي أم مالك
وحالاتها في الطهو والتنظيف ..

راقبتها أم مالك بانكسار ، تأملتها وهي العروس إذ يكسو أنفها التراب ، وتساءلت ماذا عساها تفعل الآن لو أن كل شيء بقي كما كان ؟ ثم لنفسها معاشرةً : ومن ذا يبقى كما كان يا أم مالك ؟!

أين جمالك الذي كان يتهامس به فتيان حلب في ماضٍ ليس بعيد ؟ وبهرجة الملابس وسوداد الكحل ؟! انقلبت جميعها شحما ولحاما فصرت جراب زعتر ! ، ليتك هنا اليوم يا أبا مالك لترى عيالك وقد صاروا رجالاً وعرائس ، خنقتها عبرة فأثارت دمعةً فتضاهرت بأنها من أثر التراب ، أين معيشة القصور الفارهة يا أم مالك ؟ أين الخدم والحشم والسيارات ؟ تلاشوا، وتلاشى جمال المسجد الأموي بعد الدمار والحصار، أي جمال سيبقى لأكواجم من الحجارة؟ أي جمال سيبقى لمئذنة صمدت قرونًا وجعلتها الحرب دكاء، فكانها ركعت إجلالاً لصرخة طفل مزقت أمه أمام عينيه، أو رجل تفجرت أمعاء زوجه بين يديه!، مئذنة رأت عزة الأمويين وشوكة العباسيين، فأنى لها أن تحتمل ذاك الذل والألم؟ واختفت أنغام البائعين حين يهتفون في

سوق النحاسين والعطارين، ولذتها حين تختلط أشجان المؤذن حي على الفلاح!، أنقاض فوق أنقاض وركام فوق ركام، على عتبات الله في بيته أطلق الجنود قذائفهم فهدمواه، ألم يرو كيف فعل ربهم بأصحاب الفيل؟ أين بلادنا كلها يا أم مالك!، ثم معاشرةً : ومن ذا يبقى كما كان يا أم مالك؟!

في القاهرة تتسابق موجات الحرارة مع الضوضاء في إهلاك البشر، وكلما رجحت كفة واحدة سارعت أختها بتطوير نفسها لتلحق بها، يسيئ الناس في الشوارع ألغاماً تنتظر من يلمسها لتفجر، لا شيء في قاهرتنا أكثر من صناديق البضاعة والعرق والسباب، حرب صامتة يتقارع فيها الصبر مع غباء الآخرين، والغلبة للأقوى، ولا أقوى من الغباء.

خرج آسر مع الطلاب في آخر اختبار له في سنته الدراسية بكلية اللغات والترجمة، على وجهه آثار المعركة، ينظر لبقيمة الطلاب وهم يخرجون تباعاً من

الامتحانات فيرى أشكالهم البائسة كأنهم قطط صغيرة مسكينة خرجت لتوها من غسالة ملابس . تفقد هاتفه واتصل بآسيا ، رافق رنين الهاتف نبضات قلبه في رحلته إلى حيث هي ، ردت آسيا بعصبية :

أين كنت ؟ لماذا لا ترد على هاتفك ؟!

دارت عينا همللا في محاجرهما ، وقال :

تعلمين أنني كنت في الامتحان .

لكنك اليوم تأخرت !

نعم ، لأنه آخر يوم فكنت أودع زملائي .

ردت وقد استشاطت غضباً :

إذن فزملاوك أهتم مني !!

وتتساءل في نفسه ، لماذا لا نعشق إلا الحمقاء ؟ ! ثم قال :

ستموتين بعصابيتك هذه ، تعلمين أنك أهم ، لكن ليس
لهذا علاقة بالأهمية !

بل سأموت من إهمالك .

لا مشكلة ، المهم أنك ستموتين .

يا لبرودك !

قال مازحاً :

هل سأراك اليوم أم سيرحمني الله ؟!

سirhamk الله .

إذن سأنتظرك في المطعم ، أحضرني نقود غدائك معلم

ضحكـت وقـالت :

سلام يا لطيف !

أعاد التساؤل ، لماذا قلوبنا لا تهوى سوى الحمقاءات ؟ ولماذا قلوبنا تهوى ؟! أحس بملل شديد لم يجد له تفسيراً ، أين فرحتنا يوم كنا أطفالاً بانتهاء الامتحانات ؟! ثم قال لنفسه : ربما لأننا قبل الامتحانات تكون كالحمار يحمل أسفاراً ، وفي الامتحانات نضع الأسفار في ورقة الإجابة ، فنبقي بعد الامتحانات حميراً .. لا أسفار تشغelnَا ، ولا عقل يسلّينا .

وصل منزله واستعد للقاء استعداد عريس في ليلة زفافه ، لوهلة لفحة الحنين ، ولوهلة غزته الذكريات ، ولوهلة فقد الشعور بكل شيء ، ثم استعاد طبيعته !

ذهب إلى المطعم ملهوفاً ، تسابق أعضاؤه قلبه في الوصول ، رأى قمره جالسة على كرسيها تنتظره دون انتباه لقدومه ، باعترافها من خلفها قائلاً :

معك فكة اثنا عشر جنيهاً يا آنسة ؟

نظرت خلفها متراجئةً ، فلما تلاقا الوجهان أشرعا ، تبسمت فتبسم قلبه ، جلس أمامها ، أ Gund ذقنه على

يديه ناظرًا إليها ، وقال لنفسه ما أجمل الحمقاءات !

قالت له :

اشتقت إليك !

فاكتفى بالتبسم والنظر إلى عينيها ، ثم الصمت .

ألا تسمع ؟! اشتقت إليك !

استمر بالصمت ، فانقضت بقدمها على قدمه ضاربة إياها تحت المنضدة بكل قوتها فكاد يصرخ ، ثم قال متألماً :

من أين لك هذه الصحة ؟!

ردت متذلةً :

لا شأن لك

مالك ؟!

أسأل أصدقائك الذي تفضلهم على

اللعنة عليهم ، وعلى الجامعة وعلى طاقم التدريس شخصاً شخصاً ، وعلى عميد كلية الموقرة خصوصاً .

ضحكـت فقال لها وهو يتفحـص قائمة الطعام بين يديه

هل أحضرت نقود غدائـك ؟

نعم يا خفيف .

جيد .. ماذا ستأكلين ؟

بيتزا

غريبة !

ما الغـريب ؟!

ألن تطلـبي بـرسـيـما ؟

ضرـبـته ضـربـة أـقوـى من سـابـقـتها ، فـأـفـلـتـت منه صـرـخـة خـفـيفـة ، إـلا أـنـها كـانـت كـفـيلـة بـجـذـب أـنـظـارـ كلـ منـ فيـ

المطعم صوبهما . قال لها وعلى وجهه علامات الألم :

أقسم أن هذه القوة لا تتأثر لصاحبها إلا بالبرسيم .

ضحكـت برقـة وقـالت :

أـيلـيق بـشـاعـر روـمـانـسـي أـن يـقـول لـحـبـيـبـتـه هـذـا الـكـلام ؟

أـمـا عـلـمـتـ أـن الشـعـراء يـتـبعـهـمـ الـغاـوـونـ ؟ وـأـنـهـمـ فـيـ كـلـ وـادـ يـهـيمـونـ ؟ وـأـنـهـمـ يـقـولـونـ مـاـلاـ يـفـعـلـونـ ؟!

إـلاـ الـذـينـ آـمـنـواـ يـاـ شـيـخـ آـسـرـ .

نعم ، لهذا كتب الشيخ آسر لـكـ قـصـيدة سـتـسمـعـيـنـهاـ فـيـ الأـمـسـيـةـ الشـعـرـيـةـ الـقـادـمـةـ .

انفـرجـتـ أـسـارـيرـهاـ فـرـحاـ ، وـذـابـ فـؤـادـهاـ فـيـ دـفـعـ صـوتـهـ عـشـقاـ ، وـأـعـلـنتـ عـيـنـاهـاـ عـنـ فـضـولـ قـاتـلـ لـسـمـاعـ ماـ كـتـبـهـ فـيـهاـ ، وـقـالـ آـسـرـ لـنـفـسـهـ : سـبـحـانـ مـنـ سـوـىـ جـمـالـكـ !

حلـتـ لـحـظـةـ مـنـ الصـمتـ قـطـعـهـ سـؤـالـ آـسـيـاـ :

إلى متى نبقى هكذا ؟

زارت وجهه غيمة من الحزن العميق ، فكان شمسه التي أشرقت برؤيتها كشفت بكلمتها ، وشعر في أعماقه بصوت ينادي "سحقاً" ، وقال لها :

تعلمين أن لا إجابة .

حزنت ملامحها ، إلا أنها لها حزنت ازدادت فتنّة ، لا كوردة تذبل ، لكن كشمس عند الغروب .

تابع آسر :

لا أعلم لماذا يمنع هذا المجتمع الأحمق من زواجنا !

إنها العادات يا آسر والعرف .

هذا عرف ما أشهدته ولا رضيته ، لو كان حراماً لقلّث سمعنا وأطعنا ، لكن بأي ذنب لا أستطيع الزواج منك ؟!

الفرق بيننا ليس بسيطاً يا حبيبي ، أنا أكبر منك بعشرين سنة !

نظر إليها ثائراً وقال :

في صفنا أنت أم في صفهم .

أنا فيك ، لكنني أخبرك بما سنسمعه كلاماً .

أنت أصغر مني صورةً وروحاً ، لم يرنا أحدٌ قط إلا
وحكم بهذا ، فلماذا تمنعنا شهادة ميلادِ سحقيقة من
الزواج ؟!

للله في خلقه شؤون يا آسر ، ولا ندري أي شيء خباء
القدر لنا.

تأمل بشرتها القمحاوية ، ذكرته بلون القهوة العربية
الأصيلة ، وتخللتها نسمة فاشتم منها رائحة القرنفل ،
وخطر له أنه لو تذوقها لوجدها بطعم التوت البري ،
تاه برهةً في سواد عينيها الكحيلتين ، وجال بصره في
محجرهما ، وتموجت عينيه مع رموشهما ، قال لنفسه :
ما أصدقها وما أكذبها ! ما أحمقها وما أعزبها ! ، تكلمت
كثيراً وهو يتأمل تفاصيلها ، وكان لا يسمع من كلامها
إلا أنغاماً لأنغام العود ، فكر وقدر فوجد الحل الأمثل

لمشكّلتهما أن يبدأ بتناول البيتزا قبل أن تبرد ، إذ لا ذنب لأحسائه بهذه النقاشات العاطفية المعقدة . وكعادة الساعات السعيدة هرولت العقارب وفنيت الدقائق ، وافترقا على وعد باللقاء غداً ، وفتح آسر حسابه على فيس بوك وكتب :

"دعونا نتفق أن البشرة الخمرية أكثر فتنـة من الثلوجية ، وأن الأعين السوداء لا يعدلها شيء ، لكننا ابتليـنا بـجيـل لا يفهم في الجـمـاليـات"

دوى انفجار قذيفة في معسكر الفاروق ، منذراً بهجوم كتيبة من مقاتلي العدو على ثكناتهم ، قام الجنـد مندفعـين إلى أسلحتـهم واتخذـ كلـ مـكانـه استعدادـاً للمـعرـكة ، هذا خـلف جـدارـ وذاك فوقـ سيـارة وـثالـثـ في خـندـق رـمـلي ، وأـبو قـتـادـة فوقـ سـطـح أحدـ الـوـحدـاتـ معـ قناـصـتهـ ، مؤـنـسـتهـ فيـ غـربـتـهـ ، كالـصـقـر يـرـقب فـريـستـهـ منـ أعلىـ حتـىـ إـذـ دـنـتـ انـقـضـ فـلـمـ يـعـدـ إـلاـ وـرـوـحـهـ بـيـنـ مـخـالـبـهـ .

بدأت المعركة حامية دون تدرج ، وانهالت الرصاصات تسكب كأمطار الشتاء الدمشقي القارس ، تكون بمجموع ضوضائهما أنغاماً تقض على السامعين تاريخ البشرية من لدن الغراب إلى يومنا .

كل ضغطة بسبابية أبي قتادة هي استدعاء عاجل فوري لملك من ملائكة الموت ، تعللت الصيحات بالتكبير ، والمدافع بالتفجير ، وهلعت طيور السماء فانفضت ، وبكسل انقضعت السحب شيئاً فشيئاً كأنها تفرّ قدر وسعها من غبار المعركة ، مخليةٌ بين الشمس وبين رؤوس المتقاتلين .

اندفع الجندي من الفريقين إلى وسط الميدان تحت الرصاصات مكبدين، على أرض بوار، لا شيء فيها إلا الرمال والمباني المهترئة التي تسكنها السرية مؤقتاً، وتحت أشعة الشمس التي يخفف حدتها شحيباتٍ؛ كل يرى الجنة في فوهة سلاح عدوه!

حمي وطيس المعركة ولم ترجح كفة فريق على الآخر، وبدا لنا ناظرٌ من الميدان أن الحرب لن تنتهي إلى يوم

القيامة، وقال أبو قتادة لنفسه مرة وهو يضغط على الزناد : لماذا دائمًا تذكرني هذه القناصة بجهاد ؟!

يتسقط القتلى فتنساهم الدنيا ، لا أحد يسجل أسماءهم ، لا أحد يعرفهم ، لا أحد سيفتقدهم إلا ذووهم ، حتى ذووهم سينسونهم مع دبيب السنوات على ذاكرتهم كالنمل ، هكذا الشام يتسقط أبناؤها كأوراق الشجر عند الخريف ، أتاها الخريف ولا يود أن يتزحزح عن صدرها .. معلق مصيرها على جناح طائر الغيب ، ترثي نفسها وترثي مجدها وترثي أيامها ، كعجوز تتأمل بشرتها في المرأة متذكرة أيام الشباب ، ما أشبه الشام بأم مالك !

فجأة في لهيب المعركة اندفعت سيارة دفع رباعي يقودها أبو العباس وعلى ظهرها العملاق أبو دجانة ، أبصرهم أبو قتادة فانقبض قلبه على أصدقائه ، وظل يتبعهم بقناصته يُردي من يتعرض لهم ، والسيارة كالسهم تنطلق فوق الرمال إلى هدف غامض مخترقة صفوف الجيش الحر ، كلما اقتربت اشتد عليها الرصاص ، وكلما اشتد ضاعف أبو قتادة من جهده

ليحمي أصدقائه ، والسيارة لا لجام لها تندفع كصخرة ساقطة من سفح جبل إلى قلب العدو ، وعلى ظهرها العملاق برشاشين يتختن بهما في صفوف المقاتلين ، وفجأة غيرت السيارة مسارها دون إنذارٍ سابقٍ لاتجاه قائد كتيبة الأعداء ، كالعاديات في سباق يكسوها الغبار فيكاد يخفيها عن الأعين ، ما أن اقتربت السيارة من القائد إلا وقفز أبو دجانة من صندوقها وانقض عليه تحت وابل من الرصاص فأصابت عينه اليسرى شظية رصاصة ذهبت بها وأسالت الدم منها ، انقض العملاق على القائد وهو يلهث فأسقطه أرضاً ، وتوقف الجند عن إطلاق الرصاص خشية إصابة قائهم ، وهرولوا تجاههم كالسيل .

ضرب العملاق رأس القائد بقوّة في الأرض فقد وعيه ، فحمله على كتفه وفر إلى سيارته ولم يعقب ، يجري وخلفه العدو وعلى كتفه قائمهموعينه تنزف دمًا وحوله التراب ثائراً كعاصفة ، رماه في الصندوق ثم قفز معه ، وطار أبو العباس بالسيارة تجاه معسكرهم وأسراب من السيارات تلحق به .

كَبَرْ جَنْدُ الْفَارُوقِ تَكْبِيرَةً اهْتَزَتْ لَهَا زُوايا الشَّامِ ، وَزَأْرَ
أَبُو دِجَانَةَ بِصَحِيَّاتٍ قَذَفَ الرُّعبَ فِي قُلُوبِ اللاحِقِينَ
بِهِ ، وَتَتَبعَهُمْ أَبُو قَتَادَةَ بِقَنَاصَتِهِ فَأَرْدَى كَثِيرًا مِنْهُمْ ،
وَصَارَ أَبُو دِجَانَةَ يَنْشَدُ صَارِخًا وَدَمُ عَيْنِهِ قدْ غُطِيَ
وَجْهَهُ :

وَمُدَّجِّجٌ كَرَهَ الْكُمَاءُ نَزَالَهُ . . لَا مُمْعِنٌ هَرَبَا وَلَا مُسْتَسِلِّمٌ
جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلٍ طَعْنَةٌ . . بِمُثَقَّفٍ صَدِيقِ الْكَعُوبِ
مُؤْمِنٌ

فَشَكَكَتْ بِالْرُّمْحِ الْأَصْمَمْ ثِيَابَهُ . . لِيَسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا
بِمُحْرَمٍ

وَصَلَتْ السِّيَارَةُ إِلَى ثَكَنَاتِ الْفَارُوقِ فَتَقْهَقَرَتْ كِتِيبَةُ
الجَيْشِ الْحَرِّ بَعْدَ خَطْفِ قَائِدِهِمْ ، وَفَرُوا مَنْهَزِمِينَ
تَارِكِينَ الْجَرْحَى خَلْفَهُمْ يَصْطَادُهُمْ أَبُو قَتَادَةَ وَاحِدًا تَلَوَّ
الْآخَرَ حَتَّى أَزْهَقَ أَرْوَاهُمْ .

هَذَا الْجَوْ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَّا مِنْ عَبَاراتِ الشَّنَاءِ عَلَى الْبَطْلِ
الْهَمَامِ أَبِي دِجَانَةَ ، وَاجْتَمَعَ الْجَنْدُ حَوْلَهُ يَهْنَئُونَهُ

ببطولته ، وضمد له أبو العباس جرح عينه ، إلا أن أبي القعقاع لم يُبَدِّلْ رد فعل يذكر ، اللهم إلا بسمة غير صافية ، وربتها على كتفه متكلفة ، ثم لا شيء .

عاد أبو قتادة إلى حاسوبه يسعى، يبحث عن دفء لا يستطيع العيش دونه، يريد محادثة (جهاده !)

فوجئ لما فتح موقع الفيس بوك بأن الدكتور مصطفى الشريف قد رد عليه، "عليك السلام ورحمة الله وبركاته"

ارتاع قلبه برهة، لم يدرِّ ما سبب خوفه، أرسل له متواتراً :

كيف حالك ؟

ولحسن حظه كان مصطفى الشريف حينها متواجاً فرد لفوره :

بخير وعافية ، وأنت ؟

الحمد لله بخير .. هل تعرفني ؟

انتظر أبو قتادة قليلاً، عجز عن توقع رد الشيخ مصطفى، ثم فوجئ بأن رده أبسط مما ينتظر :

للأسف لم أنتبه .. من ؟

تنفس أبو قتادة الصعداء، ثم رد :

أنا محمد حمدي يا شيخ مصطفى، لعلك تتذكري

استمر قلقه، واستمر استغرابه من سبب قلقه، وأجاب
الشيخ :

محمد حمدي ؟!! كيف حالك! يالنذالتك! أين كنت يا
بني طوال هذه المدة ؟

علم أبو قتادة سبب قلقه المستمر، وفكّر ملياً ثم أجاب

مسافر

ما شاء الله تبارك الله ! إلى أين ؟

قال أبو قتادة لنفسه ها قد بدأنا، أخذ نفسا عميقا ثم
كتب :

إلى سوريا

تأخر مصطفى الشريفي في الرد بعدما قرأ الرسالة،
وتوقع أبو قتادة أنه غارق في صدمته، وتخيل وجهه
الهادئ وهو مندهش يعلوه قليل من الخوف والتوتر،
ثم أجاب الشيخ مصطفى :

سوريا !!!

نعم سوريا .. أ jihad في سبيل الله مع الدولة
الإسلامية بالعراق والشام

داعش ؟!! أنت مع داعش يا محمد ؟؟!

نعم والحمد لله، نلت هذا الشرف العظيم

صمت الشيخ مصطفى قليلاً، وقال محمد لنفسه الآن سينفجر، وقال مصطفى :

أيُّ شرف في أن تكون مع الخوارج ؟

رغم توقع أبي قتادة، إلا أنه غضب، فرد عليه متوجلاً :

خوارج ! هل هكذا ينبغي بأهل العلم أن يتحدثوا عن الدولة الإسلامية ؟ دولة الخلافة ؟ ماذا تركتم للكفار والمنافقين والصحوات ؟

كان الشيخ مصطفى مكتباً بالمفاجأة، يتأمل قليلاً ليفكر في طريقة مناسبة للحديث، يخفق قلبه متوتراً .. أرسل لأبي قتادة :

أي دولة إسلامية تتحدث عنها يا محمد؟ أنا منذ سنتين مقيم في سيناء لأرد شبهات هؤلاء الخوارج وأواجههم بكلام الله ورسوله!

فرك الشيخ مصطفى وجهه بيديه كأنه يريد أن يطرد الكسل ويستجمع تركيزه، وقبل أن يجيبه أبو قتادة

كتب :

آخر عهدي بك أنك كنت حديث الالتزام بعد رحلة مع التعافي من الإدمان .. ما الذي حدث ؟

فَكَرْ أبو قتادة قليلاً، مغتاظاً لما تذكر ماضيه، وأكثر غيظاً لأن مصطفى الشريف يعرف ذلك الماضي، ثم أجاب :

جيد .. لقد اختصرت على المسافات، بعد ذلك تواصلت مع إخوة مجاهدين على الإنترنت، وحدثوني عن الجهاد في سبيل الله وفضله، وعظيم أجر المجاهد والشهيد، ودرست معهم كتاباً يحكي عن واقع الأمة من الكفر والنفاق والشقاق والبعد عن شرع الله، والتحاكم للديمقراطيات والكفر والطاغوت، وبعد تفكير قررت أن أسافر لأهب نفسي لله عز وجل، وأكفر عن كل ما مضى لي من ذنوب ومعاصٍ وكبائر.

صدم مصطفى الشريف من رد أبي قتادة، وبعد تفكير لم يظل كتب له :

يا محمد، ينبغي لمن يسعى لابتغاء مرضاة الله أن يتعلم دين الله ليحسن التزام أو أمره، أنت خرجت من الإدمان والمعاصي إلى جبهة القتال مباشرةً، فأي علم تلقيته لتغمر يدك في الدماء وأنت مطمئن أنك لا تصيب دمًا حرامًا؟

إن قتل امرئ مسلم أعظم عند الله من هدم بيته، فأين ما تعلّمته لتتحرز أن تقتل نفساً زكية بغير نفس؟

ماذا درست من كتب الفقه لتتكلم عن الجهاد؟ وما العلم الذي كان معك لتحكم على من تواصلت معهم على الإنترنت بأنهم على صواب؟

يا بني .. إنك في طريق سلكه قبلك أناس حاربوا علياً رضي الله عنه وكفروه واستحلوا دمه، زوج بنت رسول الله، صهره وابن عمّه ! وكانوا يظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ثار محمدٌ وغضب، وكان مصطفىٌ ضغط على دمل من دمامل جرحه، أرسل له بنبرة حادة :

كفاك رجماً بالغيب، أنت لا تعلم شيئاً عن ما درسته وتعلمنته، انشغل بکفرکم أنتم واحتکامکم للطاغوت، وللحكام الذين يحکمون بغير ما أنزل الله، أي شبهة في قتال الدولة الإسلامية للذين يحکمون بغير ما أنزل الله؟ ألسنتم تقررون بالديموقراطية وتشاركونهم مجالسهم الكفرية المسماة بالبرلمان ليشرعوا فيها بغير ما أنزل الله؟ ألسنتم تعتبرون طواغيتكم الذين يحکمونکم حکاماً شرعیین؟ من أنتم لتكلموا عن دولة الخلافة؟ عن الذين هم على جبهات القتال يذودون عن حیاض الدين ويحمون بیضة الإسلام؟

ابتسم مصطفى الشريف لما قرأ كلام أبي قنادة، وقال لنفسه سبحان الحكيم! منذ شهورٍ كان لا يدری ما الكفر ولا الإيمان، والآن يقول بأني كافرًا، استمرت بسمته وتعجبه قليلاً ثم أرسل له :

يابني، نحن لا نقول أن هؤلاء حكامٌ شرعیون، فالحكام مراتب.

الأول : الحاكم الشرعي الذي له السمع والطاعة، فكما أنك مأمور بأن تطيع والدك، أنت مأمور بأن تطيع هذا الحاكم، شرط أن لا تطيعه في معصية الله، وهذا الحاكم هو الذي بينه وبين المسلمين عقد له بندان، الأول أنه يقيم الدين وشعائره ويحافظ عليه، الثاني أنه يصلح دنيا الناس ويصلاح أحوالهم في إطار قواعد الدين، فهذا هو الذي له حق السمع والطاعة .

أما الثاني : فهو الحاكم غير الشرعي، وهذا الذي لا يؤدي الشرطين اللذين هما أساس العقد بينه وبين المسلمين، فهذا الحاكم لا سمع له ولا طاعة إلا إن أمر بواجب شرعي، لكننا نقدر المصالح والمفاسد، فقد تكون مفسدة إسقاطه أكبر من مفسدة بقائه، لأنه لو سقط شاعت الفوضى بعده وضاعت البلاد، مثل العراق بعد صدام، وفي هذه الحالة نتحمل الضرر الأقل لثلا نقع في الضرر الأكبر.

والحكام الذين تتحدث عنهم من النوع الثاني، ليسوا حكامًا شرعيين، وتعاوننا معهم ليس لأنهم حكام شرعيون لهم السمع والطاعة، بل لأن البديل أسوأ،

ولأننا مضطرون لقبول هذا الوضع وإنما شاعت الفوضى، وفي الفوضى سيضيّع الدين وتفسد الدنيا بشكل أكبر مما كانت عليه في عهد هذا الحاكم.

قرأ أبو قتادة كلام الشيخ مصطفى، ثم رد بلا تردد :

أفهم من ذلك أنك تؤيد الديمقراطية ؟

لا .. أنا لا أؤيدوها، بل رأيي الشخصي أن الديمقراطية هي حيلة يتحكم بها الأغلبية في الأقلية، ثم يوهمون الأغلبية أنهم أصحاب القرار.

أيضاً الديمقراطية التي تقبل بحكم الشعب حتى لو خالف حكم الله، لأن يبيح الشعب الزنا والخمر؛ هي كفر أكبر مخرج من ملة الإسلام .. فالله تعالى يقول "إن الحكم إلا لله .. أمر أن لا تعبدوا إلا إياه"

لكني أقول : أننا مضطرون لأن نتعامل مع الأنظمة الحالية، بما تتضمنه من آليات ديمقراطية، وبعض المبادئ الديمقراطية .. لأن البديل أسوأ، وأضر بالناس وبدينهم، ونحاول الإصلاح ما استطعنا.

تعاملك هذا كفرا!

تبسم مصطفى الشريفي ثانية، وتنهد بحزن، ونظر إلى السقف ثم إلى لوحة المفاتيح وكتب :

ما أسرع التكفير على لسانك، يا بنِي .. ترَوْ وتمهَل

رد أبو قتادة لفوره :

بل ما أجبنكم عن التصريح بكلام الله القوي المتين، إلا تعلم يا فضيلة الشيخ أن الشيخ المحدث أحمد شاكر رفض تولّي القضاء لما ألغيت المحاكم الشرعية ؟

تبسم مصطفى الشريفي ثم كتب :

بلى أعلم، وأعلم أيضاً أنه أجاز الانتخابات والدخول في البرلمان .

صدق أبو قتادة إذ لم يكن يعلم، وأنّب نفسه لأنّه تورّط بهذه الورطة وهو يعلم سعة اطلاع الشيخ مصطفى، وسارع للرد :

إن كان قال فهو كافر ولا كرامة، فهو بذلك يقول بالتحاكم للطاغوت وطاعته، وهذا كفر !

صدم مصطفى ! وقال لنفسه أو كنت أعجب من تكفيরه إياي ؟!، ثم كتب :

يا بني، عبد الله بن حذافة الصحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه قبل رأس الروم لأجل أن يطلق سراح أسري المسلمين، فهل تقبيله لرأسه إقرار له بكفره وحربه للمسلمين ؟ أم أنه ارتكاب لضرر أخف من أجل دفع ضرر أكبر ؟ إنه تعامل مع الكافر بما لا ينبغي التعامل معه في الحالة الطبيعية ، لكن لأنه في حالة اضطرار فقد فعل ذلك، وأثيب عليه إن شاء الله ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما علم : حق على كل مسلم أن يقبل رأسه وأنا أولكم !

إن الأئمة قد نصوا على أن فعل مثل هذا لتخفييف الضرر، لا لأجل الموافقة ليس كفرا ..

أَسْتَمْ تَسْتَدِلُونَ دَائِمًا بِكَلَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَبَّانِيَةِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ؟ إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ بِرِيءٍ مِنْكُمْ
وَمِنْ أَفْكَارِكُمْ، بِرِيءٍ مِنْ دَاعِشَ وَتَطْرِفَهَا

شَيْخُ الْإِسْلَامِ لَمَا سُئِلَ عَنْ جُوازِ الْعَمَلِ فِي جَمِيعِ
الضَّرَائِبِ الَّتِي تَجْمَعُ ظُلْمًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِنْ كَانَ فِيهِ
تَخْفِيفُ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، قَالَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ فَقَطُ جَائِزٌ، بَلْ
هُوَ وَاجِبٌ إِنْ كَانَ فِيهِ تَخْفِيفُ الضَّرَرِ عَنْهُمْ !

فَإِنَّ الَّذِي يَفْعُلُ مُثْلَمَا نَفْعَلُ لِيُخَفِّفَ الضَّرَرَ الْوَاقِعَ عَلَى
الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مَأْجُورٌ، لَيْسَ بِكَافِرٍ كَمَا تَقُولُ! طَالَمَا
يَعْلَمُ تَبَرُّأَهُ مِنَ التَّشْرِيعِ الْمُخَالِفِ لِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَيَعْلَمُ
سِيَادَةُ الشَّرِيعَةِ فَوْقَ الْقَوَانِينَ، وَيَقُولُ بَعْدِ جُوازِ الْعَمَلِ
بِالْقَوَانِينِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِيعَةِ، فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ كَلَامِ شَيْخِ
الْإِسْلَامِ الَّذِي تَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَتَنْتَسِبُونَ لَهُ ظُلْمًا وَزُورًا؟

تَوَتَّرَ أَبُو قَنَادَةَ، وَاحْتَارَ قَليلاً .. بِالْطَّبِيعِ لَنْ يَكْفُرَ شَيْخُ
الْإِسْلَامِ، قَالَ لِنَفْسِهِ: رَبِّيْما هُوَ أَيْضًا كَافِرٌ لَكِنْ دَعْنِي لَا
أَتَعْجَلَ، وَرَبِّيْما هُوَ الْكَلَامُ مَدْسُوسٌ عَلَيْهِ، وَرَبِّيْما أَحْتَاجَ

إلى أن أسأل مفتى السرية، الشيخ أبو الفضل، ثم قرر أن يغير مجرى النقاش فقال :

لكن الذي يحكم بغير ما أنزل الله مثل الذين أعلنا إسلامهم من التتار قال عنهم شيخ الإسلام أنهم "طائفة ممتنعة" وقال أنهم يجب قتالهم، فأين أنتم من كلام شيخ الإسلام ؟

تبسم الشيخ مصطفى واثقاً متعجباً، وكتب :

جيد أنك أتيت بنا لهذه النقطة ..

أولاً شيخ الإسلام لا يكفر هذه الطائفة الممتنعة من التتار، بينما تكفرهم أنت .

ثانياً حتى لو وقع منهم كفر فلا يعني هذا أنهم كفروا .. فقد يفعل الشخص فعلًا كفريًا لكنه يعذر ولا يكفر، بل يظل مسلماً .

ثالثاً شيخ الإسلام رحمه الله يقول بأن المسلمين يجب أن يتعاونوا مع هذه **الطائفة الممتنعة** المسلمة من

التنار لقتال الكفار، بينما أنتم تتركون قتال روسيا وأمريكا وبشار وتقاتلون الفصائل الإسلامية المجاهدة بجواركم، وتفجرون المسلمين في الدول الإسلامية، لماذا لا تتجهون إلى إسرائيل لتقاتلوها ؟ أين داعش من كلام الشيخ المجاهد شيخ الإسلام ابن تيمية ؟ أنتم أبعد ما يكون عن منهج الإمام واعتداله ووسطيته.

تعجب أبو قتادة، ولوهلة خارت قواه، وسأل الشيخ مصطفى يائساً مستنكرةً :

ماذا تعني بأنه قد يفعل أحد الكفر لكنه لا يكفر ؟

استعد الشيخ مصطفى للجواب إلا أن مؤذن المغرب رفع النداء، فقال لأبي قتادة :

قد أذن المغرب عندنا، أستأذنك لألحق بالصلاه، وأعدك بالجواب إن شاء الله لأن لنا مناقشات أخرى في وقت لاحق.

هذا أبو قتادة، وقال له تفضل، وشعر بإرهاق ومقدمات صداع، وقال لنفسه وهو يحدثها : ما أقدر هؤلاء الزنادقة على الجدال، لعن الله الجدال والمجادلين، إن الحق واضح أبلج .. وإن الباطل لجلج، وإن دولة الإسلام باقية وتتمدد وستتمدد، وستحارب المسيح الدجال الذي يتبعه أولئك المنافقون الكفرا ! ليت لحاهم كنافةً فنطعهم أبناء المسلمين !



ثم نفض عن عاتقه غبار معركته مع مصطفى الشريف، واستعد لجولة من الغزل على حلبة العشق ، وعادت نبضات قلبه تهز ضلوعه وهو يكتب رسالة لجهاد:

مساء الخير على عصفورتي .

انتظر دقائق ، خالجه خلالها إحساس غريب بأن شيئاً سيحدث ، وتذكر فجأة قناصته ، وأباه وأمه اللذين غادراه في صباح إلى القبر مخلفين له ثروة ، وعمه الذي رباه ثم طرده لما تحرّش بزوجه ، وميراثه الذي أنفقه على المخدرات ، وجihad .. وعينيها .. وصوتها ..

ولمعان نواجذها عند التبسم .. ورقة همسها عند
الخجل ، وفجأة ردت :

مساء النور على نور عيني .

كيف حالك يا بسكوتتي ؟

لست بخير !

كفا الله الشر ، لماذا ؟ !!

اشتقت إليك !

خرجت منه تنهيدة ، وترافق فؤاده عابثا بأفكاره ورد
عليها :

وأنا اشتقت إلى صوتك وعينيك .

ليتنني أستطيع النظر إلى وجهك الآن يا محمد ، هلا
أرسلت لي صورة لك ؟

فوجئ بطلبها ، فكر سريعاً كيف يتصرف ، فقرر أن يرسل لها صورة قديمة له لم ترها هي من قبل ، التفت إلى هاتفه ليأخذ الصورة فكانت الصدمة التي كاد ينخلع لها قلبه ! خلفه أبو دجانية واقف كالطود يقرأ حواره مع جهاد بدھشة لا تخلو من غضب ! ، فوراً أغلق محمد حاسوبه ، ونظر إلى أبي دجانية صامتاً خجلاناً ، عبيداً حاول إخفاء توتره ، وصمته ، وفزعه !

تتابعت ثوانٍ الصمت على قلبه كقذائف تدقه ، وبادره أبو دجانية سائلاً مستنكراً:

ما هذا يا أبي قتادة ؟!

صمت أبو قتادة وانفجر من جبهته العرق ، وقال أبو دجانية :

أقسمت عليك بالله لتخبرني ، أنا صديقك وكاتم سرك ، ما هذا الذي رأيته ؟

أرجوك أنه الموضوع ، لا أريد التحدث بشأنه .

بل وأيم الله لتخبرني به .

بالله لا تقسم

بل بالله أقسم , ما هذا يا أبو قتادة ؟ !

انهال العرق على أنفه وخديه , وبدا على بشرته الداكنة علامات الحيرة , وأسقط في يده , وعلم أن لا ملجا من الاعتراف لصديقه ورفيقه في الجهاد بتنظيم الدولة الإسلامية , ابتلع ريقه ومسح عرقه وببدأ يحكى عن قصته معها , ومشاعرهما , وخداعه لها رغمًا عنه بأنه في دبي , لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وحكاها , وظل أبو دجانة ينصل مهتمًا حتى أفرغ أبو قتادة جعبته , فقال له :

يا أبو قتادة .. إننا هاهنا نصبح ولا ندري أيمسي أحدنا فوق الأرض أم تحتها , وهكذا عيني قد كانت معي بالأمس واليوم سبقتنني إلى الجنة , فكيف بك لو كنت تقاتلها هنا عيشاً , وتأكل هذه الفتاة الكافرة حسناتك أكلاً , ثم إذا نلت الشهادة صورة حُرمت منها حقيقة

جزاء إثمك وذنبك ، وإنني والله لك ناصح بما بيننا من أخوة رزقناها من غير حولٍ منا ولا قوّة ، فألقِ عنك هذا الوثن ، وتنَّ الحب ، فإنه شريكُ الله في قلبك ، وإن الله أغنى الشركاء عن الشرك . وإن كان لك في هذه الفتاة حاجة فمُرها تترك أرض الكفر وتهاجر إليك هاهنا في أرض الإسلام ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيزوجك إياها القاضي الشرعي ، فتأخذها بكلمات الله لا بوعود الشيطان ، وإلا فدع عنك هذا فإنها حالقة ، تحلق حسناتك فتنفُّض عنك مفلساً لا أجر لك وما نالك إلا التعب .

ثم تركه غارقاً في بحر حيرته ودوامة خجله وانصرف مدبرًا ، وقال أبو قتادة لنفسه : اللعنة على هذا اليوم منذ بدأ .

رغم إزعاج صوت الزغاريد إلا أنها طقس مقدس في الأعراس عند العرب ، ربما يختلف العروسان والمأذون عن العرس لكن لا تختلف الزغاريد ، فهاك يوم التنظيف

قد انتهى قبيل المغرب في فيلا أم مالك ، وعاد الرجال فأكلوا وشربوا وبدأوا بتبادل قصص يومهم الشاق ؛ ثم تعلالت الزغاريد من النساء في غرفة جمعتهن منفسات عن تعبيهن باحتفالات مسبقة لعرس أحمد ورها ، بدأ الرقص والطبل ، ولعل من أسرار كوننا أن هذه الكائنات اللطيفة الملائكية إذا ثركن وحدهن انقلبن آلات رقص لا تمل ولا تتعب ، سواء في ذلك البكر والثيب ، الكبيرة والصغيرة ..

امتزجت الزغاريد بأهازيج الأنashid مع قليل من الكلمات الوقحة التي تلمح بها النساء في مثل هذه المناسبات ، واختلطت أصوات التصفيق بالضحك ، أما بيان فكانت - رغم انشغالها بما يشغلهن - تفكّر بعودة مالك بعد ساعات ، استمر الاحتفال وتكررت على مسامعها الكلمة المتوقعة :

عقبالك حبيبتي

ساعات من الصخب والغناء انتهت بنفاد طاقة الجميع ، فانقض الحفل وذهبت النساء لأزواجهن ، وجلست بيان

مع رهى منفردات كعادتهن ، فقالت رهى لبيان :

ألا تنويين اللحاق بنا والزواج ؟

لا أخفيك سرًا .. لا ..

فوجئت رهى وقالت :

لماذا ؟!

لا أحب الحب ..

اعتلت أمارات الدهشة ملامح رهى ، فتابعت بيان :

الحب عدو المحبين ، آسرهم وسجانهم ، معذبهم وقاتلهم .

ما هذا الكلام المعقد يا بيان ؟

الحب يا رهى في مثل حالتنا مرض ، اليوم أحب رجلاً وغداً أبكيه على قبره ، وبعد غدِ الحق به كمداً ، ماذا علي في هذا كله !

وما الحل يا فيلسوفة ؟

لا تشتري القلب إلا والعصى معه .

لا أفهم عليك !

ضحكـت بـيان ثم قـالت :

ولـن تـفهـمـي ، دـعـيـنـا مـن هـذـا الـآنـ أـيـتـهـا الرـقـيقـةـ .

فـكـيفـ تـرـيدـينـ اـسـتـكـمالـ حـيـاتـكـ ؟

أـحـلـمـ أـنـ أـكـونـ مـهـنـدـسـةـ دـيـكـورـ .

ضـحـكـتـ رـهـىـ فـاسـتـغـربـتـهاـ بـيـانـ فـعـلـتـ رـهـىـ ضـحـكـهاـ
قاـئـلـةـ :

أـيـ شـيءـ سـتـدـكـورـينـهـ يـاـ أـمـ العـرـيفـ ؟ـ بـلـادـنـاـ صـارـتـ
حـطـامـاـ !

ضـحـكـتـ بـيـانـ بـخـفـوتـ وـقـالتـ :

عـلـىـ رـأـيـكـ !

وتاهت في دهاليز عقلها تتتسائل إلى متى يستمر الحال على ما هو عليه؟ هل كتب علينا في صحائف الغيب أن نعيش بلا مستقبل ولا حاضر؟ وتساءلت هل يدرك الجلاد أن أحلامنا التي دهسها أعز من أبداننا التي مزقها؟ ألا يرانا العالم إلا طفلاً غرق على شاطئ والتققطت له صورة، أو رجلاً كان يبيع "الفريسكا" ثم صار نجماً فضائياً؟ متى ينظر إلينا العالم كبشرٍ كل واحدٍ منا له كيائ وأحلام ومشاعر حطمها الحرب؟ لا كحيوانات جريحة يكتفي الناظر إليها بمصمصة الشفاه والتالم وإبداء الأسى ثم الانصراف؟

قطع استغراقها في خيالها طرقٌ خفيف على باب الحجرة، قامت رهى لتفتح، فإذا بهما لك خلف الباب! وسيم مضيء كالبدر، يرتدي بدلةً حربية وعلى كتفه رشاشه، تبسم لبيان بعذوبه فلما رأته تسمرت مكانها لحظة أو بعض لحظة، ثم اندفعت إليه وقفزت تعانقه باكية، وقالت:

طال الغياب يا مالك!

فقال وهو يتبسّم :

كيف حال صغيرتي ؟

بخير لما رأتك .

إذن فلا حرمها الله رؤيتي .

ثم التفت إلى رهى وقال :

وكيف حال عروسنا ؟!

تورد خداها كعادتهما وردت على استحياءٍ :

بخير الحمد لله ، حمداً لله على سلامتك .

سلمك الله .

قالت بيان :

ألن تسلم على ماما ؟

سلمت على الجميع ، واخترت تركك للنهاية حتى لا أقطع حديثك مع رهى ، لكن يبدو أنني أزعجتكم .

خجلت رهى وانصرفت قائلة :

لا لا .. كنا قد انتهينا من كلامنا بطبيعة الحال ..
أستأذنكم .

أغلق الباب فنظر لعيني أخته الصغيرتين ، غابت طفولتها في أتون حربنا ، عروس هي الآن في خدرها ،
لله ما أعجب الأيام !

قالت له :

كيف تسير الأمور على الجبهة ؟

ضحك وقال :

ألن تنتوبي عن شغفك بالسياسة وال الحرب ؟

ردت باسمة :

بصراحة لا .

فقال ضاحكاً :

لن أخبرك شيئاً حتى تغنى لي بصوتك الجميل بعض
شعر المعلقات .

تمنعت دللاً فقال :

إذن لن أخبرك شيئاً ، أنا أعود خصيصاً لأسمع زقزقتك
!

ابتسمت زاهيةً ثم غنت :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل .. وإن كنت قد أزمعت
صرمي فأجملني

أغرك مني أن حبك قاتلي .. وأنك مهما تأمرني القلب
يفعل ؟!

صفق مالك لأخته مفتخرًا ، وقال لها :

ما زلت مهووسة بالشعر كما عهديك !

أورثني هذا الهوس أخي غسان .

صمت مالك متذكراً فشعرت بحمقها ، وحل صمت حزين أسيف ، وقال مالك في نفسه : غسان ! آآاه يا غسان !

قالت بيان محاولة إنتهاء الصمت :

لم تخبرني بالوضع على الجبهة .

عندنا في معسكرنا التابع لجيش الإسلام أمرنا مستقرة نسبياً ، أما في باقي المناطق فالمشهد كالزئبق ، لا يكاد يثبت على حال . ما نراه اليوم سيتغير غداً أو بعد غد ، ثم يتغير ثانية وثالثاً وعاشرًا .. لا قرار لشيء

من يحارب من ؟

أقسم أننا لا ندري .. ألف طرف وألف ألف إصبع خفي ، بشار وجيشه النظامي ، الشيعة وإيران ، جبهة النصرة

والقاعدة , الجيش الحر , جيشنا جيش الإسلام , أحرار الشام , صقور الشام .. ألف اسم وألف لواء وألف جيش .. ومخابرات أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا , شامًا أرض ينتهك عرضها بضراوة من كل الشعوب , لا شيء يبدو واضحًا لأحد .

قالت بيان لنفسها : ورهى تريدني أن أحب ! , ثم لأخيها مواسية :

ألا إن نصر الله قريب .

رد مالك متثائباً من التعب :

ونعم بالله .

هيا لتنعش ثم تنام لترتاح , يبدو عليك الإرهاق .

خرجا ومرّ مالك بأحمد ورهى فهناهما وقال لهما :

أمامكما تسعة أشهر لتنجبا لنا رجلاً آخذه ليجاهد على الجبهة .

ضحك الجميع ، وجلسوا للعشاء فاختلطت الأصوات
وتعالت الترثرة ، كل واحد منهم له شأنه وواديه ،
وكلّهم محطمة أوديتيهم ، وكان البدر يرقبهم مستعداً
لمغادرة السماء عائداً بعد شهر ، وكان كل شيء يمضي
بلا وجهة أو قبلة ، والواقع لا يرأف بالمغفلين .

تنفس الصبح إشراقاً فسقطت أشعة الشمس على
جنبات القاعة المكتظة بالمتظرين ، توسطت آسيا
الصف الأول متظاهرة بطلها في حفلته الشعرية ، وكانت
كلما لاحظت أن أغلب الحضور من الفتيات اغتاظت
ثم كظمت غيظها ، مرت دقائق حتى ظهر أسر فوق
المسرح كالنجم ، انفجرت القاعة بالتصفيق والتصفير ،
بينما ابتسم أسر ووضع كفيه على رأسه يحييهم ، رأته
آسيا فخفق قلبها ، ولقلوب المحبين عند نشوة الحب
خفقات تختلف عن غيرها ، تضخ مع الدم شغفاً وعشقاً
، ولرقة جدران القلب تكون كل خفقة أكثر إيلاماً من
أختها ، والقلب عندها يتراقص ثملاً دون انتظام ،
وتختفي الأصوات من حولك ، وتتلاشى الذكريات ،

وتبتسم ابتسامةً بلهاء لا يدرك عفويتها إلا قريب خبير ، ثم فجأة يفارقك هذا الشعور فكأن قلبك قطار ارتطم بسدٍ لا يتزحزح ، هذا الشعور لا يبدأ تدريجياً ولا ينتهي تدريجياً، بل هما صدمتان كلاهما أثقل على الفؤاد من صعق البرق!

مثل هذه اللحظات أحارت الشعراء وصفاً وأعيرت الكتاب نعشاً.. وحق لهم أن يفعلوا!!

أمسك آسر بالمايك ، ثم قال :

سلام عليكم

رد الجمهور السلام في صوت قوي ، فقال آسر :

قصيدي الأولى أهديها إلى القريبة البعيدة .. إلى ساكنة القلب والروح .. إليها.

تعالت صفقات الجمهور ، وصفقت آسيا حتى كادت تتلف كفيها ، كانت أول المصفقين ابتداءً وآخرهم انتهاءً بشكل ملحوظ ، يراها الرائي فيحسبها مجنونة .. وما الحب إلا جنون هادئ

هذا التصفيق فنظر آسر إلى آسيا مبتسمًا ثم ألقى آسر
قصيده الأولى :

يا من ينام ولم أنم
وحصون قلبي تضطرم
قد صار قلبي غارقاً
فبأيِّ فللٍ يعتصم
وسواد عينك مغرقي
لجفون عيني يقتحم
من لي بمثلك ساعةً
وله السماءُ وألف نجم
فجبال صبري زلزلت
وبناء صفتني ينهدم
إن الذي سوى بنانك قادرٌ
أن يجمع الأشتات حتى تلتاحم
نم يا صبح الوجه نوم غزالية
باتت وعيُّن الظبي منها تبتسم

تبسمت آسيا فرحةً يرفرف قلبها كطفلة ، وصفقت
فانفجرت القاعة بالتصفيق والهللة ، كاد ينخلع فؤادها

من مكانه ويطير إلى حيث فؤاد حبيبها ، بين ضلوعه الدافئة ، كما تعود العصفورة إلى عشها مبللة عند هطول المطر ، بدا لها آسر كشاعرٍ مخضرم وخطيب مفوّه ومقاتلٍ شجاعٍ وقائدٍ حكيم ، والحب أعمى لا يكاد صاحبه يرى من محبوبه إلا ما تقرّ به عينه .

تتابعت قصائد آسر وتعالت التصفيقات وتسارعت دقات قلب آسيا وهي تتأمل وجه حبيبها ، شعره المبعثر ، ونظارته التي طالما ألحت عليه بتبديلها ، وعيونيه الخضراوين ، ولحيته الخفيفة ، ثم قلبه النابض باسمها ، وجفنه الحافظ رسمها ، وأنامله التي إلى الآن لم تمس أناملها قط ..

استمر الحفل على قدمٍ وساقٍ لا يكاد يهداً ، ولما انتهى الحفل تجمع الجمهور حول آسر ، هذا يتطلب توقيعه ، وتلك تتطلب صورة معه ، وهذا يكتفي بالتعليق على قصيده آملاً في نقاش قصير مع شاعره ، وأسيا تكاد تنفجر غيرةً لو لا تفكيرها في لقائهما بعد قليل .

انتهى حفل وسط البلد ، وبصعوبة أفلت آسر من الجمهور فذهب إلى حيث واعد آسيا باللقاء ، جلسا معاً في أحد الكافيهات ، سألها عن رأيها في اليوم فظلت تحكي مدة وهو مبتسم يسمع ، حتى إذا انتهت قال لها :

من أين تعلمت هذه الثرثرة ؟؟

ضحكت وقالت :

أعلم أنك تحب ثرثري .

لا ، لا أحبها .

كاذب ، أخبرتني بهذا من قبل .

نعم أنا كاذب ، كذبت عليك وقتها .

ضحكت وكادت تضرب قدمه كعادتها لو لا أن انتبه فسحبها عنده ، نظر إلى عينيها فقرأ فيهما حزنا تحاول إخفاءه ، والحق أن مثل هذا لا تظهره الأعين لكن

تشعر به القلوب ثم توهنك أنك عرفته من الأعين ،
سألها :

ما بك ؟

ما بي ؟ لا شيء ؟

ما بك يا آسيا .. هل تخبيين شيئاً ؟!

أدركت أن عينيها فضحتها ، أو هكذا ظنت ، فقالت
بحزن :

لا أريد أن أزعجك في مثل هذا اليوم .

رد مازحاً :

أنت تزعجيتنني دائمًا لا عليك .

تبسمت بتتكلف ثم قال :

أبي ضرب أمي بالأمس .

اكفهّر وجه آسر حزناً ، وعلته غيمة من **الجزع والشقة**
، وقال لها :

لماذا ؟

لا أدرى .. فجأة علا صوتها ثم بدأ بضربيها وشتمها
وصرخت ، واجتمع الجيران عندنا ، وكانت فضيحتنا
على كل لسان .

لا حول ولا قوة إلا بالله ! وأين كان أخوك خالد ؟

تعلم أن أخي لا يعود إلى البيت كل يوم إلا فجراً ،
تفوح منه رائحة الدخان والحسنة بعد سهرة مع
أصدقائه .

صبرك الله يا آسيا على هذا الوضع الخانق ، وكيف
حال أمك الآن ؟!

جسدها يؤلمها وعليه علامات زرقاء، ولم تكف عن
البكاء من وقتها . كل فترة يكرر فعلته هذه منذ
تزوجها !

لَا حُوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ! مَا كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِي
وَتَتَرَكِيهَا فِي مَثْلِ هَذَا الْحَالِ .

لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَرَكَ وَحْدَكَ فِي مَثْلِ هَذَا الْيَوْمِ يَا آسِرَ

تَبْسِمْ ثُمَّ قَالَ :

لَا حَرَمَنِي اللَّهُ مِنْكَ .. لَكُنْكَ لَنْ تَتَأْخِرِي هُنَا حَتَّى
تَعُودِي إِلَيْهَا .

لَا تَقْلُقْ ، أَتَمْنِي يَا آسِرَ حِينَ نَتَزَوِّجُ أَنْ يَغْلِقَ عَلَيْنَا بَابَنَا ،
فَلَا يَسْمَعُ لَنَا أَحَدٌ صَوْتًا ، أَتَمْنِي أَنْ أَعُوْضَ حَيَاتِي
الخَانِقَةَ الَّتِي مَا رَأَيْتُ فِيهَا إِلَّا التَّعْبُ وَالْعَارُ وَالْفَضْيَحةُ
فِي هَدْوَئِكَ وَحْبَكَ وَاحْتِوائِكَ ..

سَرَحَ آسِرُ بِخِيَالِهِ هَنِيَّةً وَهُوَ يَبْتَسِمْ ، صَمَتْ فَتَابَعَتْ :

دُعُوكَ مِنْ هَذَا الْآنَ ، قُلْ لِي كَيْفَ حَالُ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ؟

حَالَهُمَا !! وَمَنْ كَحَالَهُمَا ! نَزَلَ الأَسْتَاذَانَ إِلَى اعْتِصَامِ
رَابِعَةِ الْعَدُوِيَّةِ .

تعجبت آسيا ثم قالت :

وأختك جهاد ؟

للاما ، جهاد لها ملكرتها الخاص الذي تسبح فيها ، لا أعلم عنها شيئاً ، لكنها لم تذهب معهما .

أتعلم ؟ فكّرت أكثر من مرة بالنزول لهذا الاعتصام .

استغرب آسر بشدة ، ثم قال :

لماذا ؟

أشعر أنهم على حق ، كان من حق الرئيس أن يكمل مدته ثم يحاسب بعد ذلك على أخطائه وإنجازاته .

الخطب ليس من على حق ومن على باطل يا آسيا ، ليس النقاش في كون الحق معهم أم لا ، هبّي أن الحق معهم .. ثم ماذا ؟

هل على صاحب الحق أن يلقي نفسه في التهلكة بحثاً عن حقه ؟ لك حق في كرسي الحكم ، لكن هذا الحق لا

يجعلك ترمي بدمائك ودماء الناس إلى الهلكة.

لا أخفيك يا آسر أني أشعر بانهزام وجبن.

غدًا سترين بنظارتي .

ضربت قدمه بقدمها وقالت :

خيبة عليك وعلى نظارتك .

ضحك وقال لها :

هيا اذهب بي إلى أمك ، تأخرت عليها كثيراً وهي أحوج
 ما تكون إليك .

ثم فتح هاتفه وكتب على الفيس بوك :

"كل استسلام هزيمة ، إلا استسلام لنظرٍ من عينيك
 فهو نصر".

علت الشمس بعد الشروق غازية سماء الشام ، هذا يخُر
قتيلًا وذاك يقع أسيّرا ولا جديدا ، صار القتلى يعرفون
بالأرقام .. أما الأسماء فما عاد لذكرها متسعا

القتيل التاسع والأربعون ، الخامس والستون .. المائة
بعد المائة ألف ! الألف واحد بعد المليونين !

شعب بددلت أسماؤه بأرقام باردة، لا مشاعر لها ولا روح
!

أيتها الصغيرة .. من كان يدرى ساعة مولده أنك
ستولدين سلمى .. وتدفين سبعه وخمسين، تفوح
منك رائحة الغاز الكيماوي الذي اغتالك؟!

من كان يدرى أن الأرض ستروي بدماء العصافير، وأن
السماء ستشهد على أشلاءهم الصغيرة؟! العصفورة رقم
ستة وسبعين !

لفتح أشعة الشمس تراب الأرض ، وسار الجند
منتظمين إلى الساحة استعداداً لتنفيذ الإعدام ذبحاً
على قائد كتيبة الجيش الحر المأسور بالأمس ، تراصّ

الجند كخشب مستدة ، وجاءت كامييرات التصوير مع المصورين والمخرجين كأننا في سينما أو مسرح ، وما الدنيا إلا مسرح كبير ، علم من علم وجهل من جهل ..

ثم استعدت الأرض لشرب دماء جديدة .

أتى أبو القعقاع قائد الكتبية مقنعاً متوضحاً السواد ، ومن بعده المأسور يمسكه مقنعاً ضخماً من قفاه يجرجره مسلسلاً ، ليس في الكتبية بضخامته إلا هو ، بالأمس أسره واليوم يذبحه ..

اتخذ كلّ موقعه للتصوير حسب توجيهات المخرج ، وجرجر الأسير إلى حيث المذبح ، يرتدي ملابس الموت البرتقالية ، ويحرك لسانه بذكر ربه ، ويقلب بصره موعداً الدنيا .

وقف أبو القعقاع يمسك مكبر صوتٍ وورقة ، وحيث الأسير على ركبتيه عنوةً ، خلفه أبو دجانة برشاش على كتفه وسكين مشحوذ في يده ، وصدرٌ يكاد يمنع الريح من المرور.

أشار المخرج إشارة البدء فتلا أبو القعقاع البيان :

الحمد لله القوي المتين ، والصلوة والسلام على المبعوث بالسيف رحمة للعالمين ، أما بعد ،

قال الله تعالى "إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ، كتب الله لاغلبي أنا ورسلي إن الله قوي عزيز"

هذه رسالة من مجاهدي الدولة الإسلامية إلى الجيش الحر المرتد ، بعد أن أسرنا قائداً كتيبة منهم وعفرنا وجهه بالتراب ،

عودوا إلى دينكم وارجعوا عن غيكم ، فحتى تعيشون في ضحاض من النفاق والشقاق والكفر والردة ؟ وإنكم والله لن تؤمنوا حتى تؤمنوا وتباعدوا لدولة الخلافة ، أتحسبون أنا سيرحل أو ننتهي أو نكل أو نمل ؟ كلا والله إننا باقون إلى قيام الساعة ، ولن يقاتلن آخرنا الدجال ، فسارعوا بالتوبة قبل أن تندموا فإن المعركة محسومة وما هي إلا أيام قليلة ، فإن أبيتم وأصررتم

إلا على قتال الدولة الإسلامية فما لكم مما إلا الذبح ،
 وقد جئناكم برجال طلقوا الدنيا وجعلوها تحت
 أقدامهم ، يحبون الموت أكثر من حبكم للحياة والقتل
 عندهم أسمى الأمنيات ، مالكم بهم طاقة ، فلنبدأن بكم
 ولنطهرن الأرض من رجسكم ، والواقع يشهد لنا بذلك
 .. والساحة بيننا وبينكم ، فاعتبروا يا أولي الأ بصار ،
 اعتبروا بمن قتل من رؤوسكم ورجالاتكم ، واعلموا أننا
 اليوم بإذن الله نغزوكم ولا تغزونا ، فلقد كنتم تروننا
 ولا نراكم ، وتعرفوننا ولا نعرفكم ، أما اليوم فإننا نراكم
 ولا تروننا ، وإننا لنعرف كل من حاربنا وأذانا ونصل لمن
 نريد منكم ، ولا تتأخر عن قتلكم إلا أن تتوبوا .. ها قد
 أدبر أسيادكم الأميركيان وتركوكم وحدكم ، فأين
 تفرون ولمن تلتجأون ؟ والله ما لكم ملجاً ولا منجا إلا
 الله ثم دولة الإسلام ، وأخيراً فلتعلم ملل الكفر ونحله
 جمعيها أن ما سيرونه الآن هي نهاية كل من حارب
 الدولة الإسلامية ، وليعلم جنود الصهوات والفصائل
 المنافقة المتنسبة زوراً للجهاد أنهم بقتالهم الدولة
 الإسلامية يكفرون من حيث يدركون أو لا يدركون ، وما
 لهم عندنا إلا الذبح والقتل والحرق ، والله المعين.

أنهى خطبته العصماء ، ثم كبر فكبّر الجند ، وتسارع لسان الأسير بالتشهد ، واشتدت حرارة الشمس على الرؤوس .

أشار إلى أبي دجانية فوضع السكين على عنقه ثم ذبحه وهو يكبّر باسم الله ، وذبح الأسير وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وجثم شبح الموت بثقله على الساحة ، وخار القتيل كخوار الثور ، وانتفاض جسده مرتعداً وقدف الدم من عنقه حتى فارق الدنيا ، وحل الصمت فكبّر أبو القعقاع وكبّر الجند ، وقيل هكذا مصارع الطواغيت والمرتدين ، يذلهم الله ويقتلهم بأيدي المؤمنين قتل الدواب .

عاد الجميع كأن شيئاً لم يكن ، وشاركتهم الأرض جرمهم فابتلعت الدماء في أحشائها ، وزاد القتلى واحداً .. فما قيمة الواحد ؟!

خلع أبو دجانية قناعه ، وعاد مع أبي قتادة منفرداً ،
سأله :

ما ذا فعلت في موضوع الفتاة ؟

رد أبو قتادة متعمضاً :

لا شيء .

عجل إذن ، اليوم ذبحنا ولعلنا غداً نذبح .

لن تأتي مهما فعلت ، أنا متأكد .

افعل ما عليك وستدهشك مقادير الله .

أنت لا تعرفها يا أبا دجابة .. لا تعرفها .

لكني أعرف الله ، من ترك له شيئاً عوضه خيراً ..

صمت أبو قتادة يائساً ، فتابع :

عد الآن فأخبرها بكل شيء ، وادعها إلى الهجرة في سبيل الله ، ولا تجعل للشيطان عليك سبيلاً .

شارفا على الوصول فأنهى أبو قتادة الحوار قائلاً :

فليبسر الله الخير .

سيبسره إن شاء الله ، لكن عدني .

صمت فقال ملحاً :

عدني !

رد أبو قتادة بحيرة :

أعدك .

فتح أبو قتادة حاسوبه فوجد رسالة من مصطفى الشريف :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فكّر أبو قتادة أن لا يرد، لكن دافعاً لا يعرفه دفعه إلى الرد دفعاً، كأنه سكران لا يستطيع مفارقة خمره !

وعليكم .

تبسم مصطفى في نفسه، وقال :

هل وصلت إلى أن ترد علي بتحية الكفار ؟

نعم، حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتابع الدولة الإسلامية وترك الخروج على الشريعة .

فكر مصطفى قليلا ثم كتب :

وهذا ما كنت أود أن يكون نقاشنا هذه المرة حوله، التكفير

تعجب أبو قتادة، ولم يرد .. فأرسل مصطفى متابعا :

هل تعرف ضوابط التكفير ؟

فأجاب أبو قتادة :

نحن في أرض المعركة لا يهمنا هذه الفلسفات الفارغة، والخدع الكلامية .. نحن نعرف كيف نحشو البنادق لنحز برصاصها رؤوس أهل الكفر والتفاق

تابع مصطفى :

إذن فلعلك تستفيد ..

أهل السنة يفرقون بين الفعل وفاعله، فلا يشترط لكل فعل كفري، أن يكون كل فاعل له كافراً.

ما معنى هذا ؟

معناه أن السجود لصنم مثلاً كفر بلا شك، لكن ليس كل مسلم يسجد لصنم يصير كافراً، بل نحتاج قبل تعيينه بالكفر إلى خطوات كثيرة .

تعجب أبو قتادة وقال مستنكراً :

كيف ؟ !!!!!!!

قبل تعيين فاعل الكفر بالكفر نحتاج إلى ما يسمى بـ "استيفاء الشروط و انتفاء الموانع" ، بمعنى أن هناك شروطاً يجب أن تتحقق في هذا الشخص وموانع يجب أن تنعدم عن هذا الشخص حتى يصير كافراً بسجوده للصنم، فإن فقد شرط من هذه الشروط لم يكن كافراً، وإن وجد فيه مانع من هذه الموانع لم يكن كافراً

ضرب أبو قتادة كفأا بكف وكتب :

وضح أكثر، ما هذه الشروط والموانع ؟

أجابه مصطفى :

هي موانع ثمانية وضد هذه الموانع شروط ثمانية

المانع الأول : الخطأ، فلو فعل مسلم فعلاً كفرياً بدون قصد لا يكفر، فمثلاً وطؤ المصحف بقدمك كفر لأنك إهانة للمصحف، لكن لو حدث هذا خطأ دون أن تنتبه لوجود المصحف فلا تكفر.

المانع الثاني : النسيان، فلو نسي المسلم أن هذا الفعل كفريّ وفعله لا يكفر، مثل أن يسلم أحد النصارى، وفي اليوم التالي لإسلامه أراد أن يستعين بالله فثلث على جبهته وكتفيه ناسيًا بحكم عادته القديمة، لا يكفر.

المانع الثالث : الإكراه، فلو هدد الكفار مسلماً بالسلاح ليسب الله فعل، لا يكفر لأنّه مكره، كما حدث مع عمار بن ياسر رضي الله عنه وأنزل الله فيه "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"

المانع الرابع : الصغر، أن يكون صبياً لم يبلغ بعد، فهذا غير مكلف، لو أن طفلاً صغيراً بكى ورمى المصحف على الأرض فهذا لا يكفر لأنّه غير محاسب أصلاً.

لوهلةٍ شعر أبو قتادة بالجهل ثم الضيق، وحدّث نفسه أن يغلق الحاسوب وينهي كل شيء، ثم أعرض عن أفكاره وتتابع القراءة، وتتابع مصطفى الشرييف :

المانع الخامس : النوم، فلو أن رجلاً نائماً تكلّم وهو نائم بالكفر، لن يحاسب لأنّه غير مكلف، وهذا يذكرني

بحادثٍ حدثت عندكم .. حينما كان أحد المقاتلين يقاتل الحشد الشيعي وكانوا يهتفون يا حسين، فأصيب ودخل غرفة العمليات، فبينما كان يفيق من البنج ظل يردد : يا حسين، بحكم أن هذا آخر ما كان يسمعه أثناء قتالهم ، فاتهمتموه بأنه شيعي وقتلتتموه، وهذا جهل وخطأ .. لأن النائم لا يحاسب أصلا.

المانع السادس : الجنون فلو أن مجنونا سجد لصنم، لم يُحكم بكفره لأنه لا يعقل.

المانع السابع : الجهل، فلو أن رجلاً أسلم قريباً، ولما سُئل عن فريضة الحج قال جاهلاً أنه ليس بفرض، لا يكفر .. بينما منكر فرضية الحج كافر لأنَّه يكذب القرآن، لكن هذا الرجل عذر بجهله.

المانع الثامن : التأويل، بمعنى أن يكون لديه فهم خاطئٌ لهذه الجزئية من جزئيات الإسلام، جعله هذا الفهم يفعل ذلك، مثل بعض الذين يطوفون بالقبور متأولين أن هذا تقرب لله، ومتأولين أنهم لا يعبدون

الشخص نفسه، فلا شك أن الطواف بالقبور كفر، لكنهم ليسوا كفاراً لأنهم متاؤلون جهله ضالون.

ضحك أبو قتادة ورد متعالياً :

أما قلت لك ! هذه الفلسفات اللسانية التي لا فائدة منها، تشغلون بالمجنون والجاهل، وتنشغل بحز رؤوس المنافقين .. أنا مشفق عليك ! تتكلم بكلام لا دليل عليه إلا أهواوكم وعقولكم ، وتترك ساحات الجهاد وتحارب دولة الإسلام !

رد مصطفى الشريفي بعد قليل من التأمل :

أشكرك لشفقتك عليّ، لكن هذا الذي تعتبره فلسفات لسانية هو الذي يفرق لك بين المسلم والكافر، فيجعلك تضمن عدم إصابة دم حرام، لا كما تفعلون أنتم عندكم من قتل المسلمين بعد تكفيرهم بأدنى شبهة، دون النظر للشروط والموانع !

وهذا الذي تقول أن لا دليل عليه كتاب الله وسنته مملوءان بالدلالة عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رفع عن أمتي الخطأ والتسیان وما استکرھوا عليه" فھذه الثلث الأولى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رفع القلم عن ثلث عن النائم حتى يستيقظ, والمجنون حتى يفيق, والصبي حتى يبلغ" فھذه الرابعة والخامسة والسادسة.

وقال تعالى : "وما كنا معدبين حتى نبعث رسولًا" فھذه السابعة والثامنة, فمن جهل شيئاً لعدم بلاغه به أو لتأوله ؛ لا يحاسب عليه, لأن الله لا يعذب إلا بعد البلاغ.

وحيث يفعل شخص ما الكفر يجب أولاً أن يمر على هذه المراحل حتى تتأكد من استيفاءه للشروط وانتفاء الموانع عنه, لأن إسلامه ثابت بيقين فلا يزول إلا بيقين, وهذا هو عمل العلماء فقط, فلا يحل لأحد أن يدعي أنه سوف يرى هل استوفى فلان الشروط وانتفت عنه الموانع ليحكم بکفره أو لا, إلا العلماء فقط هم الذين يفعلون مثل هذا لأنهم من أهل العلم

والاختصاص، وعوام المسلمين لا يحل لهم التدخل في مثل هذا أصلاً، فضلاً عن من لم يدرس كتاباً واحداً وانطلق مباشرةً إلى ساحة القتال يقتل هذا ويذبح هذا ويبيح دم هذا ويهتك عرض هذا !

أنت الآن حكمت بكافري، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما" ، فهل هناك من أهل العلم من عينني بالكفر لتقول عني ذلك ؟

تفكر أبو قتادة في كلام مصطفى قليلاً، وقال لنفسه قاتله الله ما أخبرته وأقدره على الجدل والسفسطة ! ، ثم رد :

إذن فأنت تقول كل هذا منذ البداية حتى تبرئ نفسك من الكفر والنفاق ؟

بل حتى أخبرك أن المسارعة إلى التكفير هي عالمة الجهل والعبث والضلال، أستلم تستدلون بكلامشيخ

الإسلام ابن تيمية وتنسبون إليه زوراً وهو بريء منكم؟

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول:

"وهذا مع أني دائمًا - ومن جالستني يعلم ذلك - أني من أعظم الناس نهياناً عن أن ينسب معين إلى التكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى، وأني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطاؤها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية"

وكل ما سبق بفرض أنني أتيت كفراً من الأساس، لكنني أصلاً بيئت لك في النقاش السابق أن محاولة تقليل الفساد - ولو كانت سترتب عليها ارتكاب فساد أخف - ليست كفراً، بل يؤجر عليها صاحبها، كما فعل الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة رضي الله عنه لما قبل رأس ملك الروم ليفرج عن أسرى المسلمين، فقبل عمر بن الخطاب رأسه لما علم!

مشكلتكم يا بني أنكم حملتم السلاح دون علم، فجهلتم مراد الله منكم .. فقتلتم المسلمين والذميين، وشوهتم صورة الدين المعترض، وأرضيتم شهواتكم مستترین بستار الإسلام والقرآن، فهلا تعلّمتم قبل أن تحزوا رؤوس الأبراء؟

كفرتم جميع الفصائل التي تقاتل معكم في سوريا، كفرتتموهم بغير حق ثم حاربتموهم، كفرتم المسلمين الذين يصلحون في بلادهم بغير حق، ولم تكتفوا بالتكفير بل أتبعتموه بالتفجير والقتل والإهلاك ! فهلا تعلّمتم القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن تجرموا هذه الجرائم؟ الجهل هو أساس الرزايا والمصائب !

حار أبو قنادة جواباً، واستعاد بالله من الشيطان الذي كاد يشككه لحظة، وخار عزمه، وأصابه الملل فجأة، وفكّر كيف يتخلص من هذه المناقشة، ثم قال :

هذاك الله ياشيخ مصطفى، هداك الله قبل أن تقدر عليك دولة الإسلام فتضرب عنقك لأجل نفاقك!

أنا مضطرب للذهاب لأجل الصلاة أستاذك .

وانصرف أبو قتادة عن الحوار يلجم عقله بكل لجام لئلا يفكر فيما سبق، وقال لنفسه هؤلاء سحرة فرعون! لعنهم الله وأخزاهم! ، لن أعود للحديث مع هذا الكافر ثانيةً، ثم قال لنفسه مالي وللكفر والإيمان! مالي وللكفر والإيمان وأنا مقبل على مصيبي مع جهاد !

قد حان مالا بد منه ، حانت لحظة الحقيقة بعلقها وزقومها ..

ضعيف هو الإنسان أمام مرآته ، مرآته التي تصدقه عيوبه ، مرآته التي تخبره بالحقيقة كاملةً غير منقوصة ..

فتح الرسائل بينه وبين جهاد ، كأنه يقدم قدماً ويؤخر أخرى ، نازعته نفسه للاستسلام إلا أنه تذكر شبح أبي دجانة وهو يؤنبه ، ففتح الرسائل فوجد آخر رسالة بينهما :

أقسم على أنني لم أذهب في حياتي لدبى قط ، أنا أقاتل في الدولة الإسلامية ، وأنا الآن في ريف حلب .

كانت رسالته كصخرة سقطت من السماء على قلبها مباشرةً فدكته ، وقالت :

ماذا !!!

لم أشأ أن أخبرك لئلا تقلقني على

لم ترد وانفجرت في البكاء ، وخيل لها أن قصراً ينهدم فلم يبق فيه حجر على حجر ، وتتابع :

أرجوك تفهمي الأمر ، أنا بخير لا تقلقني .

سرت موجةً من الغضب فغطت قلبها الرقيق ، وزاد بكاؤها فاستحال عوياً ، وخرت أمامها أحلامها ، واجتثت الصدمة شجرةً كانت زرعتها في مخيلتها ، وسقطتها بماء أملها ، وبدموعها المنهمرة على خديها كل ليلة ، ثم لم ترد فتابع :

جهاد ! أين أنت ؟ أنا أعلم أن الأمر ليس سهلاً استيعابه ، لكنني كذلك وهذا بالفعل ما حدث ، وإنني يا جهاد أدعوك لترك بلاد الكفر عندك والهجرة إلى في سبيل الله ، يزوجنا هنا القاضي الشرعي ونعيش أيامنا كما رسمناها وكما حلمنا بها .

صمتت ولم ترد ، وفكّرت في حقارته ودناءته وأنانيته ، وبدا له أنها ستغرق في دمعها وحيرتها الممزوجة بغضبها ، مرت دقائق خالجتها خلالها نسمة من أمل فكتبت له :

أرجوك قلي أنك تمزح ، تخطى الأمر كونه لطيفاً .

أقسم أني لا أمزح ، هاجري إلى لنعيش أيامنا كما رسمناها يا جهاد .

اللعنة عليك وعلى أيامنا وعلى رسمنا لها أيها الكاذب الخائن .

اهتزت الفيلا العتيقة بأصوات الزغاريد ، وتهادت الأفواه بأنغام الأناشيد ، وتجمع الصبايا والشباب يحيون العرس، ففي مثل هذه الظروف لا مكان للعارضات ولا القاعات ، ولا شيء أكثر في يومنا هذا من النصائح ، بغضها وسمينها .

جلست رهى كحورية من حور الجنة بين الفتيات ، تكاد تشع نوراً وتفوح مسكاً وتنطق أنغاماً ، وتتوالت همسات النصح من خالتها دانية في أذنها ؛ "ابنك على ما ربيته، وزوجك على ما عودته" .. "إذا حببتك غالى البسله ناري" ..

وفي الجانب الآخر كان أحمد بين الشباب يعطونه وصاياتهم "اقطع راس القط ليلة العرس"

وبين الجانبين كان يتهمس الجميع "عطي الشاب للصبية ولو ناموا في البرية"

استمررت فعاليات العرس هادئة تقطع سعادتها كدر الأيام ، غنت الفتيات "الهناهين" وهن يتراقصن :

أوها وصلوا على النبي أوها وزيدوا صلاته

أوها واللي ما بيصلّي على النبي أوها تطلق مراته لي
لي ليش

أوها كسرنا البيضة أوها طلعت بصفارين

أوها كل الناس بفرحة أو نحن بفرحتين لي لي ليش

أوها حصنتك بياسمين ، أوها يا زهر البساتين ، أوها يا
مصحف صغير ، أوها على رؤوس السلاطين لي لي
ليش . . .

وتصل أصواتهن للرجال فيردوا :

صلوا على محمد محكول العين نير وغضير وعادنا
وهي

أول ما بدينا حركنا إيدينا ، وع النبي صلينا وعربيتنا
هنينا ، وصلوا لنصلّي صلينا ، وحيوا لنحي حيينا .

حيوا الميدان أهل الإيمان ، حيوا الشاغور الشعلة والنور ، حيوا الصالحية كلها زكرتنيه . . .

ويا عريض لا تعبس ، افرد من جوخك والبس ، وغيرك الأبيض لا تلبس ، هادا اليوم اللي كنا نربده .. أو وائل ويا عكيده . . .

خرج العروسان للزفاف ، ووقفا في باحة الفيلا قبل الباب بقليل والتلف الكل حولهما ، وأخرج الجميع هواتفه يصوروهما ، قال أحمد لرهى بصوت عالي وهو يعذها أمام الصحافة العائلية :

أعدك أن أكون لك أبا وأخا وزوجا وابنا وحبيبا ، أعدك أن تكون أيامك معي أسعد أيامك ، وأن لا أتسبب في حزنك ، وأن أحفظك بين ضلوعي .

ردت رهى بحياة شديد وصوت لا يكاد يُسمع :

أعدك أن أكون لك أمّا وأختا وزوجا وبنتا وحبيبة ، أعدك أن تكون أيامك معي أسعد أيامك ، وأن لا أتسبب في ضيقك ، وأن أحفظ نفسي بين ضلوعك .

قبل رأسها بحنان ثم تصدرا الزفة خارجين من الفيلا في جولة خاطفة وخلفهم الأولاد والبنات يصفقون ويغنوون ، أمسك أحمد بيد رهي ، قبض على كفها.. خطياً معاً أمتاراً بعد أمتار ، يفكر كل واحدٍ منها في حياته مع الآخر وشكلها ، وتنبض قلوبهما فرحة بالاجتماع بعد قصة عشق منذ الطفولة .

وفجأةً وبلا مقدمات تفجر دوي طائرات في السماء ! فزعت رهي فشدت قبضتها على يد أحمد ، وهلع الجميع ففروا إلى الفيلا ، ورصدت الطائرات النظامية تجمعاً بشرياً قبل المدينة فرمي قذائفها عشوائً ، وتدافع الرجال والفتيات إلى الفيلا ، ووصلت القذائف إلى الأرض فطارت منها شظايا أصابت ثلاثة رجال منهم أحمد ، فخر لفوره على وجهه ، وصرخت رهي وانكفت عليهتتحتضنه وتصرخ فزعةً، فجذبها أحد الشباب بقوة إلى الفيلا ، وتعالى صرخ النساء ، وأسقط في يد الرجال ، وعادت الفيلا العتيقة تهتز لكن هذه المرة ليست بالزغاريد !!

مررت الطائرات سريعا ، فخرج مجموعة من الرجال فورا وحملوا المصابين وذهبوا بهم إلى مستشفى ميداني مجاور .

سمع مالك في معسكره على بعد كيلو مترات في الجبهة دوي القصف قريبا من فيلتهم ، فاستأذن قائده ثم انطلق سريعا ليطمئن على أهله ، ولما وصل سمع صرخ النسوة فانقبض قلبه وقال يا خفيها لطفه الطف بنا .

دخل إلى الفيلا فقابلته بيان منهاارة وحكت له ما حدث ، ذهب إلى أمه ليطمئنها ، وإلى رهى ليخفف عنها ، وقال وصوته يكذبه : لا تقلقا إن شاء الله سيعودون قريبا ويكون أخي بخير .

مررت دقائق فرن الهاتف الجوال ، رد مالك على المتصل بلهفة ثم فجأة تسمّر مكانه وانصبغ وجهه وصمت .

اقربت أمه منه ، نظرت إلى وجهه دون كلام ، ثم نظرت إلى البنات وقالت :

وَحْدُوا اللَّهُ .. اسْتَشْهِدْ أَحْمَدْ .

ثُمَّ خَرَّتْ جَالِسَةً وَوَضَعَتْ رَأْسَهَا بَيْنَ كَفَيْهَا ، وَجَتَمَ
الصَّمْتُ بِثَقْلِهِ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْأَفْوَاهِ ، لَحْظَاتٌ كَأَنَّهَا
سَنَوَاتٌ ، خَفْقَاتٌ كَأَنَّهَا انْفِجَارَاتٌ ،

صَمَتَتْ بِبَيَانٍ ، أَخْزَاهَا بِبَيَانِهَا وَخَذَلَهَا ، تَرَاجَعَتْ خَطُواتٌ
إِلَى الْوَرَاءِ حَتَّى أَحْسَتْ بِالْحَائِطِ خَلْفَهَا فَانْهَارَتْ قَاعِدَةً
، وَانْسَلَّ مَالِكٌ مِّنْ بَيْنِ الْحَرَبِيْمِ إِلَى مَكَانِ الرَّجَالِ وَهُوَ
يَحْوِقُلُ وَيَذْرُفُ الدَّمْعَ الْأَسِيفَ ، وَغَاصَتْ بِبَيَانٍ فِي وَحْلِ
الْأَلْمِ وَالذَّكْرِيَّاتِ الَّتِي تَمَرَّ كَلْمَحُ الْبَرْقِ عِنْدَ سَمَاعِ خَبْرِ
الْمَوْتِ ، غَابَتْ عَنِ الدُّنْيَا ، وَتَذَكَّرَتْ يَوْمًا هَاجَمَتْهَا ذَكْرَاهُ !

مَرَّةً كَانَتْ عِنْدَ شَجَرَةِ التَّوتِ بِجُوارِ مَنْزِلِ جَدِّهَا ،
يَتَسَابِقُ الْأَوْلَادُ عَلَى ثَمَرَاتِ التَّوتِ ، وَلَضْعُفَهَا وَرَقْتُهَا
كَانَتْ تَعْجَزُ عَنِ مَسَابِقِهِمْ !

جَلَسَتْ تَبْكِي ، عِنْدَ دَرَاجَتِهَا ، فَجَاءَهَا أَحْمَدْ بِكَبِيسِ تَوْتِهِ
وَتَقَاسِمَاهُ مَعًا ، وَكَفَكَفَ دَمَعَهَا بِأَنَامِلِهِ ، وَأَطْعَمَهَا أَوْلَ

توته بيده ..

قالت بياً لنفسها لم يمت، بل غاب **ساعاتٍ** وسيعود !

انقبض قلبها وضمّ، يختبئ بعضه داخل بعضه، يسحقها
الألم وتلجمها الصدمة !

أفاقت فجأة فسمعت الصراخ والعويل يساقط من
حولها، ودموع أمها الصامتة تقطع أكباد الحاضرين!
ليتك تصرخين يا أماه فيخفف عنك !

وصدمة رهى التي أخرستها فلم تنطق، واجتماع
حالاتها حولها ثم بدء إحدى الحالات بالغناء :

يا ام الشهيد اطلعى عالباب لاقيلو
جابوه محمل على الكتف ... شايلينو
قومي افرشى فرشتو ... وهاتي مخداتو
نام العريس وغفي واتغمضوا عيونو

تتابع تصفيق النسوة والدموع تنسال على خدوذهن ، وأقمن رهى رغمها عنها لترقص كأنها تظهر الفرحة باستشهاد زوجها، رقصت بهستيرية على الأغنية وهي تبكي وتصرخ، وتابعت خالتها :

يا ام الشهيد البسي مطرز ما بين ناسك
ولا طرحة سودة .. تحطيها على راسك
اليوم طير السعد .. هذا على الشباك
رفف حواليكي.... وبين عيونك بآناسك

، وزاد عويل رهى وهي ترقص بفستانها الأبيض الملطخ بالدم، دم أحمد لما سقط واحتضنته! ، وتابعت خالتها :

يا ام الشهيد اسندني ظهرك بدبياتك
وامشي راسك مرفوع .. ما بين خياتك
قالوا البطل ان وقع تدمع عليه العين
وانتي ليوم الفرح .. خبيتي دمعاً آلتك

انهارت رهى حتى خرت مغشياً عليها فسارعت أم مالك تتداركها، وصمتت بيان مشلولة، تغزوها ذكرياتها مع أحمد، وحنانه وعطفه، وطيبة قلبها وبعده عن شراسة أخيه غسان! آه يا أحمد وآه يا غسان!

وتابعت خالتها:

يا أم الشهيد اجمعي شعره واجدليه
واغلى عطر عالراس... يا يئما رشيله
اليوم عرس... حبيب الروح.. المدلل
هاتي ثياب العرس ..هاتي مناديله
يا أم الشهيد اطلعى عالباب لاقيللو
جابوه محمل عالكتاف شالونو
قومي افرشي فرشتو وهاطي مخداتو
نام العريس وغفي واتغمضو عيونو

ثم ارتفع الصراخ والنواح فغطى على كل شيء،
وانقلب العرس مأتماً، وامتلأت العيون دمّاً والقلوب
دمّاً، ودخل الليل على الجميع، ليل كان ينتظر

عصفورين ليشهد عشقهما فإذا به يدفن واحداً وبهيئ آخر !، وعاد الطيار بفعلته إلى فراشه الدافئ ، ونام وهو يقول لنفسه : عاشت العروبة ومات الخونة ! .

أسر وأسيا ، عصفوران من عصافير الجنة ، ولأنهما خارج الجنة فمكتوب عليهما الكد والثصب ، جلس معها في صباح باكر من أيام آب على أحد المقاهي في وسط البلد، قبل أن تشتد حرارة الجو، تراصت أمامه كلمات العربية ليتخير منها ما يشاء فيهبه غزلًا في جمال آسيا ، وقبل أن يختار فرّت الكلمات كماء يفرّ بين الرمال ، اختفت وتركته عاجزاً أمام جمال معشوقته .. لا يملك إلا الصمت والبسمة ونفحة القلب ولوعة الوجدان ، قال لآسيا :

أتعلمين أنك بالصبح أجمل مني في المساء ؟

و قبل أن ترد رن هاتفه ، استاذتها ورد ، وفجأة وقف فزعاً وتلون وجهه وزاغت عيناه وزارت ملامحه تقاسيم الرعب والهلع ، فزعت آسيا لفزعه ، ولما أنهى

الاتصال سريعاً سأله :

ما بك ؟!

قال وهو يذهب ويجيء محتاراً ..

الجيش بدأ في فض اعتصام رابعة بالقوة !

يا الله ! وأبوك وأمك ؟!

قال منهاراً :

لا أدرى يا آسيا لا أدرى !! هل أذهب هناك لأجد هما ؟!

هل جنت ؟ بالطبع لا !! اذهب إلى المنزل واطمئن
بالمتابعة هاتفياً ، وربك سيلطف .

قال وهو يلملم أشياءه سريعاً :

يا لطيف يا لطيف !!

ثم وهو يودعها وينصرف مسرعاً :

ارجعي للمنزل فوراً ، وسوف أهاتفك فور الاطمئنان
عليهم .

عاد إلى المنزل مهرولاً مشتتاً فزعاً خائفاً يتربّص ، دلف
إلى منزله فوجد أخته جهاد تبكي وتنحّب ، خرّ قلبها
على الأرض من بين ضلوعه ، سألهما والدموع يفرّ من
عينيه :

ما بك ؟!

ردت وهي تمسح دموعها :

لا شيء ، مشكلة مع بعض صديقاتي

اللعنة عليك وعلى صديقاتك أجمعين ، أبوك وأمك
يُقتلان وأنت تقولين صديقاتي ؟!

ماذا !!! يُقتلان ؟!

اعتصام رابعة بدأت الحكومة في فضه من قرابة ساعة
، بالدبابات والمروحيات والرصاص !

فزعـت جهـاد وزـاد بـكاؤـها وـنحـيبـها ، وـعاود آـسر الـاتـصال بـأبـويـه وـلـا مـجـيب ، فـتحـ التـلـفـاز وـجـلسـ أـمامـهـ هوـ وأـخـتهـ يـتـابـعـانـ ماـ يـحـدـثـ ، وـكـانـ كـلـمـاـ جاءـتـ مشـاهـدـ جـثـثـ تـفـحـصـاـهـاـ وـقـلـبـاهـماـ فـيـ أـكـفـهـماـ يـرـتـعـداـنـ ، وـلـسانـ آـسـرـ يـلـهـجـ "ـيـاـ لـطـيفـ يـاـ لـطـيفـ"ـ ، وـعـيـونـهـماـ تـسـيلـ وـقـلـوبـهـماـ تـرـتـجـفـ وـأـجـسـادـهـماـ تـرـتـعـشـ ، وـالـلـهـ يـسـمـعـ وـيـرـىـ !

قال آسر سأنزل لأبحث عنـهـماـ، وـقـالـتـ جـهـادـ سـأـنـزـلـ معـكـ .. انـفـجـرـ فـيـهاـ صـارـخـاـ :

ابـقـيـ هـنـاـ وـلـاـ تـتـحـركـيـ حـتـىـ نـرـىـ ماـ سـنـفـعـهـ فـيـ هـذـهـ المـصـيـبةـ

صرـختـ فـيـهـ :

بلـ سـأـنـزـلـ لـأـبـحـثـ، مـاـذـاـ سـأـفـعـلـ هـنـاـ؟

غـادرـهـاـ وـهـوـ يـلـعـنـ أـيـامـهـماـ، وـتـوـجـهـ إـلـىـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ يـبـحـثـ عـنـ أـبـيهـ وـأـمـهـ، وـغـادـرـتـ بـعـدـهـ جـهـادـ، يـطـوفـانـ مـتـفـرـقـيـنـ عـلـىـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ، تـحـارـ قـلـوبـهـماـ.. أـنـدـعـوـ اللـهـ

أن نجدهما في المشفى؟ أم لا نجدهما في المشفى؟
التبيه أخف أم الإصابة؟ اللهم لطفاً لطفاً!

ذهبت جهاد لأحد المشافي فوجدته مليئاً بالمخبرين، يتربّقون الداخل والخارج.. وكل مصاب ينزف دمًا يعلمون أنه كان في الاعتصام فيقبضون عليه وينتزعونه من المشفى ! يجرجوه يثعب دمًا إلى الحجز في أقسام الشرطة !

دخلت جهاد تسأل عن أبيها وأمها .. مسعود عبد الرحمن، مرفت الصاوي ، انتبه لها بعض المخبرين فاستجوبوها، من هذين؟ متى فقدا؟ أين كانوا آخر مرة؟ لقد رأيتك في إحدى المظاهرات لماذا تنزلين؟ أقسمت بالنفي وتتابعت الأسئلة، وأكلوها بأعينهم، وهددوها وتوعدوها لو كانت تكذب .. وخوّفوها وأفزعوها .. وخرجت تلعن الدنيا، وتذكرت محمداً .. ولعنته!

أما آسر فكلما خطأ خطوة أو قفه مخبر، أين كنت؟ لماذا تسير في الشارع الآن؟ هل أنت عائد من الاعتصام؟

كان قلبه يخفق مرتعداً على أبيه وأمه، وكان المخبر يثاقل بالأسئلة، يجيب وهو تائه، يتتحمل الدخان الذي ينفثه المخبر عاماً في وجهه .. ثم أفلت !

مرّ يومان على هذا الحال من البحث الفاشل، والأذية والضرر، وتحرش أحد المخبرين بجهاد، وتعرض لها بعض الباطجية لأنها تلبس عباءة فاتهموها أنها إخوان! وسبّها طفل صغير حينها واتهمها في شرفها، وحاولت امرأة نزع حجابها من على رأسها، وفرّت تبكي وينزف قلبها، تبغض الدولة والحكومة والشعب، نفسها وأخاها وأمها وأباها، تلعن يوماً ولدت فيه على هذه الأرض، ويوماً رأت فيه هؤلاء البشر !

خارت نفس آسر وخرّت على أرض اليأس والعجز ، وفقدت جهاد وعيها مرات ، وحاولت آسيا جاهدةً أن تخفف عن آسر بلا جدوى ، وقال لنفسه : لعن الله الشيطان ! لو عقلاً قليلاً !

وفجأةً في منتصف الليل طرق الباب طرقة خفوتاً لا يكاد يسمع ، ولو لا أن النوم طار من أعينهما طوال

اليومين لما سمعا مثل هذا الطرق في هذا الوقت المتأخر ، فتح آسر الباب بحذر فإذا بمجموعة صغيرة من شباب الإخوان المسلمين ومعهم أمه مصابة إصابة بالغة ، أشاروا له وهمسوا دون ضجيج أن ادخل وأغلق الباب خلفنا ، دخلوا والجو مليء بالتساؤلات ، ماذا جرى ؟! ماذا حل ؟! نظر إلى أمه وهي تتلوى من الألم وجرحها مضمد بالضمادات الأولية ، وقد انكبت جهاد عليها تبكي ، ونظر إلى الشباب وسألهم أين أبي ؟ صمت الجميع ، فكرر السؤال لأمه أين أبي ؟ طال الصمت فأمسك أحدهم من عنقه وصرخ فيه أين أبي ؟!!!! ، رد بصوت يملؤه الحزن والأسى : لله ما أخذ والله ما أعطى يا أخ آسر .. (تعيش إنت) .

جثمت لحظة من الصمت ، فجره صرخة جهاد وعويلها في منتصف الليل كذئب فقد ابنه ، وشلت جوارح آسر فسقط على الأرض مقعداً أصمّ أبكم لا يقدر على شيء ، وسالت دموع عينيه دمعة ثم دمعة ثم دمعة ، وحال له أن فؤاده يتمزق بضعة بضعة ، وأن دمه يسيل على الأرض قطرة قطرة ، وأن الدنيا انتهت في لحظتهم ،

وأن القيامة على وشك أن تقوم بعد سويعات ، وأنه جاء وقت الحساب والعقاب ، وأن الأرض ستبدل غير الأرض والسماءات ، وحال له أنه يذبل ، ثم يذبل ، ثم يذبل .. ، وبعدها فقد وعيه .

**لِرَاحِيَةِ
النَّبْدِ وَرُوْحِهِ**

الفصل الثاني

تغيب شمس وتشرق شمس ستغيب ، ونمني أنفسنا
بغدٍ أفضل .

أترى الله يغفر كذبنا على أنفسنا ؟

يسيل الدمع من بين فرت ودم ألمًا خالصا ، يصهر
قسوة الأفئدة ، ولا يطفئ نار المساكين .

وقلب أبي قتادة ما عاد قلبه الذي ألفه ، وروحه حلقت
إلى حيث لا تعرف ، حيث لا ترى ولا تسمع ، ورغم
ذلك كانت تحس وخز الفراق .

يُرى فلا يرى من ذلك شيء ، كمحموم تراه يرتعش برداً
وهو نار تلظى ، يقال إن العين مرآة القلب ، كذب
السائل والمصدق ، لو رأى عيني أبي قتادة لما قالها .

أرسل إلى جهاد يستنجد بها من ألم فراقها ، يستجير
بها من نار غضبها ، يستعيذ بها من شر بعدها .

يعلم أنها لن تعود ، ويعلم أنه لن يتوقف عن المحاولة ،
ويعلم الله ما ينتظره .

يمسك قناصته فيسائلها ، أتتركينني يوماً كما تركتني
؟ ثم يجيب عنها : كل نفس ذائقه الجزع والفزع والألم
والبعد .

كان يسمع همس أبي دجانية وهو ينشد :

كذابك من أمر الحويرث قبلها .. وجارتها أم الرباب
بمأسال

ففاضت دموع العين مني صباة .. على الخد حتى بل
دمعي محملي .

عجبت أنه كان لا يفهم ، وأعجب أنه كان يتأثر .

يرسل لجهاد فترى رسائله ولا ترد ، تقرأها أولاً بأول ..
ثم لا تجيب !

وكانت جهاد تصارع الموت عند الحلقوم ، يراود ضعفها عن نفسه ، فتستجير بألم خافت لا يكاد يبین .

أبي عند ربه ، أمي معلقة بين بين ، ومحمد .. اللعنة على محمد !!

تلعنه وتتذكر كلماته التي يرسلها لها كل ساعة أو أقل عن دولة الخلافة الراسدة والحكم بما أنزل الله ، تنلبت عن يمينها وشمالها فتتأوه وتقول يا لمساجد تغلق .. ومصاحف تحرق ، ومسلمات تحبس وتغتصب !

يفور فورانها ، ثم تهدأ ، ويأتيها الضعف من كل مكان فتضعف ثم تعود ! تعود عوداً تعلم أن بعده ضعفاً .. وتهمني نفسها بأمل .. أترى الله يغفر ؟

قالت لنفسها : ماذا علي لو كلمت محمداً ؟ فتجيب نفسها : اللعنة عليك وعلى محمد .

تبكي ، فترق نفسها لحالها ، فتقول لها : عودي فكلمي محمداً ، فتجيب نفسها : اللعنة عليك وعلى محمد .

يقول القلب للعقل ؛ عد ، فيجيبه : لا تعد .

عد .. لا تعد .. بل عد عد .. لا .. غد .. كلا لا تعد ..
ستعود .. لا .. عد .. عد .. عد !!

تفجرت دهشة أبي قتادة ، صار يتقافز مكانه
كالمجانين ، يهز نفسه هزا عنيفا عليه يفيق من حلمه ،
حلم يحسبه الظمآن ماءً .

تلفت حوله .. خر ساجدا .. رفع رأسه ! ثم رد عليها :

ظننتك ذهبت للأبد !

بكت وأجابت :

كذلك ظننت

كيف حالك ؟

مات أبي .. قتل في فض رابعة .

صمت عاجزا ، رد مواسينا .. خجلان أسفًا ، قال :

لم يعد للمسلمين مكانٌ عندكم ، هاجري يا جهاد إلى أرض العزة والجهاد ، أرض الخلافة والنصر والظفر !

هبت عليه نسمة تراقص لها عوده ، قالت :

لأجل هذا أكلمك .

أقسم لنفسه أنه يحلم ، وأقسمت له نفسه أنها تصدقه ، وقال لنفسه : حلم يخفف ألم الواقع ؟ ، قالت : نعم .

وقالت جهاد :

ما هي الخطوات لأخرج من هذه البلدة الظالم أهلها ؟

ثم فجأةً اتبهت لما تفعله أو توشك ، ودهشت لما تفكر فيه ! بدأ بالحكى والشرح ، فانفجرت بالبكاء والعويل ! أكمل الشرح فزاد البكاء ، توقف برهةً فتحسست جهاد زرائر لوحة المفاتيح التي تشوشها الدموع وكتبت له :

أها .. تابع .

إيبيبيبيه يا أم مالك !

يوم مات أحمد فتحت بيأث مصحفها فكانت سورة
يس .. القرآن الحكيم .. إنك لمن المرسلين .

ومن ساعتها ما انفكـت عن القراءة ، والبكاء ، وقول
الشعر والصمت الذي يؤلم الرأي ويُفجع العارف .

عجبـت أن الذاكرة تنشط عند الحزن، تجلـدك بالأيام
الخواـلي .. بالأماكن التي بقـيت بعـدما رحلـوا .. بـأنغـام
سمـعتمـوها مـعاً !

ما زالت الجدران تحتفظ في مسامـها بـأصـوات الزغارـيد
، ناظـرةً يـومـا سـتعـود فـيه الأـلحـان نـضـرة غـصـة ، ما
أـكـذـبـ الجـدرـان عـلـىـ أـنـفـسـها !

رهـى .. كـورـدة صـغـيرـة كـسـرـتـ سـاقـها وـظـلتـ مـعلـقةـ إـلـىـ
شـجـرةـ الـحـيـاةـ بـلـحـاءـ رـقـيقـ سـخـيفـ ، ذـبـلتـ وـماـ زـالـتـ
مـعلـقةـ ، فـقـدـتـ عـطـرـها وـماـ زـالـتـ مـعلـقةـ .. كـانـتـ تـذـبـلـ
فـتـيـبـسـ أـشـوـاـكـهاـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ وـهـيـ لاـ تـشـعـرـ تـبـحـثـ فـيـ
عـيـنـيـهاـ فـلاـ تـجـدـ تـلـكـ الـبـرـيـئـةـ الـتـيـ كـانـتـ يـحـمـرـ خـدـاـهـاـ

بالأمس خجلاً، بسمتها .. صار لها طعم آخر، وهمسها
صار له فحيخٌ إذا تأملته أروعك.

أما أم مالك .. فيا ويح أم مالك ، وما أدراك ما أم مالك
ثم ما أدراك ما أم مالك !

جبل عتيق عتاقة حلب بشوارعها وأهازيجها ، قويٌّ
قوة الشام بعقبها وريحانها، جميل جمال سوريا بشتائهما
وحشمتها ، تجلى له الموت فجعله دكاء !

قصمت ظهري يا أحمد .. قصمت ظهري يا أحمد ، حيٌّ
قيوم الله !

هكذا كانت تتمتم وتبكي ، بارت نبضاتها فما عادت
تشمر دفناً ولا أميناً ، وفعل موت أحمد بها في أيام مالم
تفعله الحياة في عقود .

إيبيبيه يا أم مالك !

عاد مالك من على الجبهة ، لأول مرة كان وجهه معفراً
بالتراب ، لم ينتبه لهندامه كما كان ينتبه من قبل ، سلم

على بيان بصوتٍ كسير .. قبل يد أمه العجوز بقلبِ
أسيير، انفرد بها وقال :

كادت إجراءات السفر تنتهي يا أم مالك .

نظرت له بعجزٍ، صمت قليلاً يظهر التماسك، خارت
قواه فانفجر باكيًا وقال :

يعز على الفراق يا أمّاه

ثم وهو ينهنه بصوتٍ مجروح :

لكن سوريا الآن خطر عليكم ، يجب أن ترحلوا .

ربتت على كتفه بتعبٍ وهمست :

أعلم يا مالك .. أعلم .. أعلم .

لكن هناك مشكلة .

رفعت رأسها تتفرش وجهه ثم قالت :

خيراً ؟

ستضطرين للسفر مع رهى أولاً، ثم ستلحق بكم بيان
بعد أسبوع مع إحدى حالاتها.

يائسةً قالت :

فليفعل الله ما يريد.

هنا القاهرة ! صدق الذي سماها قاهرة ، زاد تعلق آسر
بآسيا بعد موت أبيه وإصابة أمه ، قال لها يوماً

عيناكِ تخبيء شيئاً .

تبسمت فظهر حزنها ، قالت :

نعم .

صمت يستنطقتها فقالت :

تقدم لي عريس اليوم ورفضته .

ارتعد جسده الهادئ ، فزع قلبه فظهر على وجهه ،
 فأعادت بصوت أعلى :

رفضه !

قال لها وقد بدا عليه الجد على غير عادته :

آسيا ؟

نعم

ضميري يقتلني !

باغتتها كلمته فصدمت ، ثم قالت :

أعوذ بالله ! لماذا ؟

صمت فكررت وهي تهزه :

لماذا ؟

أنا أؤذيكى .

تؤذيني ؟ !!

نعم .. أنت في سن لا يسمح لك بهذا اللعب .

كيف ؟!

قد شارفت على الثلاثين يا آسيا ، إلى متى سترفضين العرسان لأجل؟ !

حتى أموت .

لا أنت لا تعرفين شيئاً عن العنوسية .

تقضب حاجبها ، وفاح من نبرتها الغضب وهي تغمغم فتابع :

أخشى أن يأتي اليوم الذي تلعنيني فيه لأنني فعلت بك هذا .

قامت آسيا منتفضة وهي تبكي ، وقالت :

كيف تجرؤ !

تمالك أعصابه وردّ

لم أجرؤ ، أشتكي لـك ألم ضميري .

ضميرك ! ماذا يعرف ضميرك هذا عن ما ألاقيه لأحتفظ لك بمنفسي ؟

توثر الجو ، وببراعته هذا من روعها ، جلست ثانية ،
هدأت ، تبسمت ، أشرقت ، قال لها :

سأنهي هذا الأمر .

كيف ؟!

سأخبر أمي بكل شيء ونرى ما هي الخطوة القادمة .

لا يا آسر .. سترفض بكل تأكيد ، ليس هناك احتمال للموافقة !

دار نقاش طويل انتهى بقوله :

سنرى ، وليفعل الله ما يريد .

في سرية الفاروق نفح أبو دجابة صدره مثل الديك ،
وقال منتشياً لأبي قتادة :

أما قلت لك ؟ من ترك شيئاً لله عوضه .

ضحك أبو قتادة وضحك أبو العباس وتبسم أبو القعقاع ، قال أبو قتادة :

سأذهب لاستقبالها على الحدود بعد أيام .

قاطعه أبو القعقاع بحزم :

لا .. لن تذهب ، سنخوض معركة قريباً ونحتاجك فيها

تمعرض وجهه أبي قتادة وقال :

ثم ماذا ؟

سأرسل أبا العباس ليحضرها بدلاً عنك ، أما أنت فلا

قال أبو دجانة معترضاً :

توفّر رجلاً فترسل آخر مكانه !

نهره أبو القعاع بننظرة ذات مغزى ، ثم بنبرة حادة :

عندنا قناصٌ واحد وألف راجل .

مجبراً وافق أبو قتادة ، ممنيا نفسه بما بعد هذا الشقاء من لحظات سعد وود ، متخيلاً وجه عصفورته وهي تبتسم له بعد سفرٍ شاقٍ بعيد .

وبالليل عاد كل شيء كما كان ، قالت له جهاد :

لا أتخيل لحظة لقائنا .

لكني أتخيلها يا جهاد ، كم رسمتها في مخيلتي خلال الأشهر الماضية .

أنا خائفة .

لأنك بعيدة ، البعد يعني الخوف والبرد .

قالت جهاد لنفسها : كيف ؟ فأجابت : لا أدرى !

كان القمر يراقب العشيقين ، وكانت نسائم الليل الباردة تخلل ضلوعهما فتداعب أفئتها ، مداعبةً رقيقة باسمة .. هادئةً ناعمة .

كانت جهاد تنتشي ساعةً وترتعد ساعات ، وكان أبو قتادة يتمنى لو يملك طي الأيام ، لو يملك دفع العقارب دفعاً إلى الأمام ، ما أبطأ اللحظات حين ننتظر ، وما أسرعها إذا وصلنا ، ما أخفت النبضات عند الحزن ، وما أشدتها عند الشوق والفرح ، بل ما أقرب اللقاء وما أجلنا !

قال لنفسه : يا أيها الجالس على حافة الزمن تنتظر روحك المهاجرة ، صبراً جميلاً يخفف عنك ألم البعد ووحدة الفراق .

وقالت جهاد لنفسها : أفضح أهلي وأهرب ؟

ثم قالت ؛ وأين أهلك يا مسكينة ؟ أبوك مات ، وأمك في الطريق ، وأخوك ليس أخاك إلا على الأوراق !

أمضت ساعاتٍ من الليل تتأملُ قراراً لا تعلمُ كيف ولا
متى اثْخَذْتَه ، لعنتُ ماضيها ومزقتُ حاضرها وتطاعتُ
إلى مستقبلٍ مورقٍ مع الحبيبِ القريبِ ، مع الراقد في
صفحاتِ القلبِ وخبايا الروحِ ، مع محمدِ !

سحقاً لحياتك البائسة ، سحقاً لدولتك الكافرة ،
لمجتمعك الفاسق ، للزنادقة المحيطين بك ، سحقاً
لأهلِك ثم سحقاً سحقاً !

وطأتْ أم مالك تراب بورسعيد مع رهى فتنفست
الصعداء، بعد رحلة طويلة شاقة هربتا فيها من الدمار،
مروراً بتركيا، وصولاً إلى أرض بورسعيد بالباخرة ،
ملأـت رئتيها العجوزتين براحة اليود البحري الغازية
للهواء ، وطربت أذنها لحظةً لأصوات بائعي السمك
ونغمتهم العجيبة في الكلام وفتح أواخره، راقبت
المعدية وهي ترسو ببطءٍ على الشاطيء فينزل منها
المئات ويصعد إليها المئات، لا تكل "المعدية" ولا تمل،
لا تشتكى ولا تتوزع، ما أشبهها بالدنيا .. تنقل كل يوم

عشرات الآلاف من بطون أمهاطهم إلى بطون قبورهم !
ثم لا تستكين ولا تمل !

قالت أم مالك لرها وقد تصنعت ملامح الحكمة على وجهها :

نحن عصفورتان فرّتا من أسر الدنيا إلى حرية القفص .

ضحك رها بدلاتها وقالت :

ألا ترين يا ماما أنك عصفورة سمينة جدا ؟

ضحكنا بهستيرية ، ثم تلاشى الضحك شيئاً فشيئاً ،
وقالت لها أم مالك :

الآن ها نحن ذا ، لا مال يكفيانا إلا القليل ثم لا مأوى ولا
رجل !

وماذا سنفعل ؟

تطلعت أم مالك إلى السماء وقالت :

سنبحث عن أحد الطيبين لنحكي له قصتنا فيساعدنا ،
ما أكثر أولاد الحالل .

ردت رهى وهي تتنهد :

يا رب !

سارتا عند المسجد الكبير بعد معدية بورفؤاد ، تجران
خلفهما أذيال الـ ... سوريا ! نعم .. أذيال سوريا !

تصل المعدية فينزل المئات ويصعد المئات ، تفرستا
وجوه المارة ، تفرس مفلس مسكين جار عليه الزمان ،
قالت رهى لأم مالك :

ها ؟

أجابتها :

وما أدراني ؟!

ثم لنفسها : لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت وما مسني !

إيبيبيبيبيه يا أم مالك !

نسجت الدقائق ساعاتٍ طوالٍ عجاف ! قعدت أم مالك من التعب ، وزفرت رهى من الملل والألم ، ثم فجأةً توجه نحوهما رجلٌ خمسينيٌّ عليه علامات الصلاح والتقوى .

اقرب خطوة وقرب معه الأمل ، خطوة خطوة .. أملاء .. أملاء ..

وصل فسلم غاضباً بصره متكلفاً ، ردتا :

عليكم السلام والرحمة والبركة .

لاحظتكما منذ مدة هكذا ، هل تنتظران شخصاً أو شيئاً ؟

صمتت رهى حياءً ، وقالت أم مالك :

يا أخي ، نحن سوريتان كما ترى ، وصلنا اليوم من سوريا ولا نعلم ماذا نفعل ، لا مال ولا رجال ولا مأوى ،

وربك مطلع ، ويكرم أهل الفضل والمرؤة .

أظهر الحاج الأسى والألم ، وقال لهما :

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والله قد ساكمـا الله إلى سوقاً يا حاجة ، أنا الحاج سلام ، عبد من عباد الله الطيبين وسمعتي في بورسعيد تسبقني . فأبشرـي بفرج من عند الله قد جاءك !

ردت أم مالـك وقد تهـل وجهـها وسكن قلبـها :

بـشـرك الله بالـخـير يا حاج .

عندـي لكـما غـرفة في إـحدـى عـمـاراتـي ، أـرجـو أن تـنـاسـبـكـما مـؤـقـتاـ حتى أجـدـ لكـما إن شـاءـ اللهـ حـلـاـ أـفـضـلـ .

تهـيـاتـ أمـ مـالـكـ لـتـدعـوـ لـهـ وـقـدـ عـلـاـ وـجـهـهاـ الـاستـبـشارـ فـقاـطـعـهاـ :

وعـلـيـ أـكـلـكـماـ وـشـربـكـماـ وـسـكـنـكـماـ وـكـسـاؤـكـماـ ،ـ المـالـ مـالـ اللهـ ،ـ وـنـحنـ عـبـادـ اللهـ !

بكت أم مالك وشكرته رهى ، وخطف نظرة إلى وجه رهى ثم عاد إلى صومه عن النظر ، وقال :

لا شكر لا شكر ! ، الله هو الغني الحميد .. الله هو الغني الحميد !

أخذهما الحاج سلام إلى غرفة فارغة مصممة للبواب في إحدى عماراته الفاخرة ، وطلب لهما عشاءً دسمًا ، ثم ودعهما وتولى ودعوات أم مالك تنهال عليه .

تأففت رهى من التراب فقالت أم مالك : يجب أن تعتادي عليه . قالت رهى : ولا يوم من أيام الفيلا .
قالت أم مالك :

أي مكان يؤويكي فهو فيلتك ، اشكري الله وهي لنننظف .

مالـي أـرـاـكـ قد أـشـرـقـتـ فيـ مـصـرـ منـ جـدـيدـ ؟

يا بنية ! لو لم نشرق لغبنا ، نشرق كي لا نموت ، لا ينبغي أن نموت !

بدأتا التنظيف ، وفجأة تذكرت رهى أحمد فسال دمعها ساخنا صامتًا ، لاحظت أم مالك فضمتها وقبلت ما بين عينيها وقالت :

اللقاء قريب يا رهى ، قريب فلا تستعجليه .

كان آسر يقدم رجلاً ويؤخر أختها ، يتردد ثم يعزم ، ثم يتردد ثم يعزم ، ثم يقرر ويقسم ، كان يقسم لنفسه ألف مرة ويبحث ألفاً .

حتى سفك دم الشك باليقين ، قال لأمه وهي قعيدة الفراش :

السلام عليك .

نظرت إليه متأنمة ، ورغم أنها وضعفها لم تفقد صرامة نظرتها ، ردت :

عليك السلام يا آسر .. اجلس !

جلس بأدب ، تبسم لما تأمل ، قال لها :

أريد أن أفاتحك في موضوع .

تفرست وجهه ثم ضحكت بصعوبة وقالت :

ترىيد أن تخطب ؟

دهش لفراستها ، وبش وجهه ، وقال نعم !

ومن صاحبة النصيب ؟

هنا بالضبط المشكلة .

تعجبت وقالت :

أية مشكلة ؟

تلعثم وقال :

أحببت فتاة كاملة الأوصاف .

ضحكت أمه ، فتساءل ، فقالت له :

هكذا الحب ، يريك المحبوب كاملاً .. تابع .

تم بعض ثم تابع :

إلا نقطة واحدة .

ها ؟

أنها أكبر مني !

بدا عليها المفاجأة ، إلا أنها لم لملمت ملامحها وقالت :

بكم ؟

عشر سنوات .

ملأت الدهشة وجهها ممتزجة بالاستنكار والتأهّب
لمعركة ، كظمت ما بها وقالت :

وكيف تعرفت عليها ؟

قابلتها في إحدى حفلات توقيعي وتعرفنا ، ثم أحببنا

بعضنا .

تفجر الغضب منها وتطاير شرره ، وصرخت رغم ألمها في وجهه قائلة :

أي حب أيها الأحمق ؟ أنت من سن أولادها ! تلك اللعنة الساقطة ! استغلت صغر سنك وخدعت ، وجدتك شابا ذكيا مرموما فطممت فيك وألت على نفسها أن تلتف حولك مثل الأفعى ! ومنذ متى وبنات الناس يتعرفن على الشباب في الحفلات ؟ !!!

قاطعها قائلاً :

نريد الحلال يا أمي !

صرخت فيه بنبرة أعلى :

حل الله رقبتك من على كتفيك ! تريد السافلة أن تختطفك مني وأنت أحمق مراهق ! حلال ماذا ؟ حلال أن تخدعك تلك العقربة وتوقعك في شباكها ؟ يا لك من ساذج !

هم بمقاطعتها فانفجرت باكية ، متآلمة بجرحها ، بكاءً صهر قلب ابنها ، وقالت :

تخدعك يا آسر ، تخدعك وأنت ساذج صغير لا تعرف شيئاً ، هذه حرباء عجوز فاتها قطار الزواج وتبث عن رزقها عند حمقى مثلك ! وأنت لا ترحم ضعف أمك ، ستزيد مرضي حتى أموت ! سأموت غاضبة عليك إن لم تنه هذه العلاقة مع تلك الحرباء !
لن يبارك الله لك في حياتك لأن أمك عليك غضبي ، فلتتها بهذه الساقطة !

استمر الصراخ متواصلاً قرابة ساعة ، وأسقط في يد آسر فلم يجد بدًا من وعد أمه بقطع علاقته نهائياً بتلك الفتاة التي تخدعه وتوهّمه .

ثم عاد إلى آسيا يجر أذيال الأسى ، يحكى متآلماً ، تسمع متآلمة ، تكف ألمها عنه بسمة مصطنعة ، نسيت أنه يكاد يعلم صمتها قبل جهراها، يميز بين طبعها وتصنعاها ! قالت له تواسي نفسها قبله :

لا عليك ، ربك صاحب المقادير ، إن قدر علينا اللقاء
سنلتقي .

ثم لنفسها داميةً : وإن قدر الفراق ... !

راود آسيا احساس خفي بدا مع الأيام بأن آسر يسعى
لتركها تدريجًا كي لا يؤلمها ، صار لو تأخر عنها مرة
تقول لها هو يفعلها ، لها هو يقتلني قتلا بطريقاً ، يتركني
أنزف يوماً بعد يوم .

و ذات ليلة قالت لنفسها كأنها تخاطبه ؛ أجعل فرافقك
هادئاً .. ساكتاً .. ثم خاطفًا ، أما سمعت قوله : إذا
قتلتم فأحسنوا القتلة ؟!

دخلت أم آسر المستشفى ، وتعالت نبرات المشاكل بينه
وبين آسيا ، هو يقسم أنه لا يخطط للبعد ، ونفسها
تقسم أنه يبتعد ببطئ ، كقارب في الأفق .. يسحبه
الموج شيئاً شيئاً .. فجأة تستيقظ فلا تجده !

ذات صباح جلس معها في أحد المطاعم يكفكف دمعها
بأنامله ، قال لها مداعباً .

لم أكن أعلم أنك تشعرين مثل البشر !

ضربته في كتفه وضحكـت وهي تبكي ، فسارع قائلاً :

لا لا .. لا تضحكـي ، منظرك وأنت تبكـين أفضل !

ضحكـت أكثر ، وضربـته ضربـة أشد ، فضحكـ و قال لها :

نعم ، هـكـذا أنت طبيعـية .

انقضـت ساعـاتـهمـا ، وانـصرفـ إلى بـيـتهـ مـهـمـومـا ، دـخـلـ فـلـمـ
يـجـدـ جـهـادـ!

تسـأـلـ أـيـنـ هيـ.. ذـهـبـ لـيـبـحـثـ عنـ طـعـامـ فـيـ الثـلاـجـةـ
فـوـجـدـ عـلـيـهاـ وـرـقـةـ مـكـتـوـبـةـ ، اـنـقـبـضـ قـلـبـهـ فـجـأـةـ وـارـتـعـدـ
جـسـدـهـ بـلـاـ سـبـبـ ..

، أـخـذـ الـوـرـقـةـ ، قـرـأـهـ فـوـجـدـ فـيـهاـ :

"السلام على القارئ ورحمة الله وبركاته ..

أـناـ جـهـادـ مـسـعـودـ ، أـخـبـرـكـمـ أـنـيـ مـهـاجـرـةـ مـنـ أـرـضـ الـكـفـرـ
إـلـىـ أـرـضـ الإـيمـانـ ، الدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ بـالـشـامـ وـالـعـرـاقـ ،

سُئمت حياة الاستعباد في مصر وحياة النفاق والكفر ،
وأنا مهاجرة إلى أرض الإيمان ، ولني هناك رجل اسمه
محمد ، ما إن أصل حتى يزوجنيه القاضي الشرعي
فأصير زوجته على سنة الله ورسوله ، وأنصحكم بترك
دار الكفر واللحاق بي في دار الإسلام .
والسلام ..

أنهى القراءة فخرّ على الأرض عاجزةً أعضاؤه، حاول
الاتصال بها فوجد هاتفها مغلقاً، تسمّر ببرهة ثم انتفض
يصرخ ويحطّم أثاث المنزل! حتى خارت قواه ثانية
وأقعى على الأرض لا يتحرك..

ساعة من الحيرة والتردد والذهول قرر بعدها أن يذهب
لأمه في المستشفى، رغم حمق الفكرة إلا أنه لم يجد
حلاً غيرها..

ناولها الورقة، قرأتها .. صعقت ، ثم صرخت بألم ..
ولطمّت على خديها وقالت تحطم بيتك على رأسك !

ثم أغمي عليها، وحاول الأطباء إسعافها فلما أفاقـت
صرخت فيه بصوت أحـش مريض :

أنت السبب ، أنت الذي صادقت بنات الناس ، فرده الله
في أختك !

تفجر آسر وانطلقت ثورته كإعصار ضارب ، في لحظة
حمل شاشة أحد الأجهزة الطبية ورمى بها في الأرض
فتنهـمت ، وصرخ في أمه :

الآن صارت بنات ناس ؟ ألم تكن عقرية ساقطة ؟

بل أنت التي خضـت في أعراض الناس بالباطل
واتهـمت آسيا بما ليس فيها فأراك الله ذلك في ابنتك !

حـطم بقبضـته جهاـزا آخر ثم قال لأـمه صارـحاً :

من الساقطة ؟ التي تهـرب من بيتها إلى عشيقـها ؟ أم
التي تطلب العـيش في الحـلال مع شخصـ أصغر منها ؟

تبادل الصراخ وأقبلًا على بعضهما يتلاومان ، وكاد آسر يحطم في فوران غضبه أجهزة غرفة المشفى لولا أن هرول إليه الأطباء والممرضون وأمسكوا به بشدة يهددونه ويتوعدوه، ويحاولون الإبلاغ عنه، ولم يقطع جنونه إلا إغماء أمه ثانية .. ألمًا وحسرة .

ثم .. هدا !

وصل أبو العباس إلى حيث كان الاتفاق ، ليزف جهاد لرئيسها أبي قتادة ، تفكّر هنئية كيف أن الدنيا متشابكة بهذا القدر؟ كيف أن المسافات قريبة هذا القرب؟ كيف أن العقارب لا تصعد إلى السطح إلا ليلا لتلangu وتفرّ !

أين روسيا التي كنت فيها؟ بل وأين أنا؟ أين أنا الذي كنت فيها؟ من كان يحسب والخطوب كثيرةً أني سأتي هنا لأفعل ما أفعل؟ سبحان المدبر !

مرت دقائق قليلة ، أتى فيها مجموعة من المقاتلين التابعين لتنظيم الدولة في هذا المكان ومعهم جهاذاً بعد أن تسلموها من غيرهم في رحلة تهريب طويلة خطط لها محمد ودبر ..

رآها أبو العباس فغضّ عنها طرفه ، ركبت في المقعد الخلفي وانطلق بسيارته عائداً إلى مقرّ سرية الفاروق ، زافاً عروس محمد إليه ، محملاً بالبشرى ليلقّيها على قلب محمد فيرتد بصيراً .

طوى الصحراء مسرعاً بسيارته ، أملاً بسماع نصر مؤذن سريته حين يعود .

كانت جهاد في الخلف تصارع عقلها وضميرها ، تدفنهما وتهيل عليهما التراب ، وحين تهيل التراب يقول ضميرها مهدداً : وإذا الموعودة سئلت .. بأي ذنب قتلت ؟ ! ..

وكان لا تفعل شيئاً إلا أن تدسه في التراب !

بعد مدة بـدا من بعيد شبح لمقاتلين يقطعون الطريق في لجنة .. أو كمين !

دقق أبو العباس النظر فرأى مقاتلي الجيش النظامي ، تفجرت نبضات قلبه فرعا .. انحرف بسيارته عن الطريق وخاض غمار الصحراء يعيها عبا .. انتبه له مقاتلوا الجيش النظامي فطاردوه بسيارتهم وقذائفهم

احتار أبو العباس .. أين المفر ؟ أين المفر في هذه الصحراء المفتوحة ؟ أنى لي أن أهرب منهم ؟!

كان يفكر وكانت جهاد تصرخ وكانت القذائف تمر حولهم كالأسمهم ، تراود أصوات القذائف أرواحهم عن نفسها !

ترجحى أبو العباس جهاداً أن تصمت ليفكر ، وترجمته أن يسرع لتنجو ، وازدادت القذائف من خلفهم عددا وبأسا ، واقتربت السيارات النظامية منهم ، وابتعد الطريق واتسعت الصحراء .. أين المفر ؟!

أصابت قذيفة إطار سيارة أبي العباس فانقلبت بعنف ، ولما استقرت خرج منها خائفاً بصعوبة وأخرج جهاذاً وهي مصدومة لا تتحرك، ثم انفجرت السيارة بعد ثوانٍ ..

فرّ وقد جرح في بطنه جرحاً عميقاً ، وكسرت ساقه .. يجري أعرج ويمسك بيده لئلا تندلق أمعاؤه

توجه إلى حشائش قرية فتواري بينها ، وصلت القوات النظامية فأمسكوا بجهاد ، وبحثوا عنه فلما لم يجدوه قالوا تفحم داخل السيارة ..

وجريدة جهاد عائدين وعيونهم تمزقها وضحكاتهم توحى بنياتهم ، وصراخها ونحيبها يشق السحاب ولا مجيب !

انتظر أبو العباس حتى أرخى الليل سدوله ، خرج من مخبئه .. أليست العقارب تخرج بالليل ؟

زحف مهلكاً ، متعباً بجراحه .. مضطضاً قلبه ، دامعة عينه ، يلهث من العطش .. يطوي الأرض شبراً شبراً ،

متراً متراً .. ببطئ وألم .. ساعات تليها ساعات ، يكاد
ييأس لولا أن اليأس في هذه اللحظات قاتل !

مع الصباح وصل أمام مقر سرية الفاروق بأعجوبة
وارتدى مغشيا عليه !

رأه أصحابه فهرعوا إليه فزعين ، ورآه أبو قتادة
فضُعِقَ ، بث في روعه ألف سؤال وسؤال .. كلهم يبدأ
بأين هي ؟

أتى طبيب السرية مسرعاً وأخذه إلى حجرته ليجري
له جراحة عاجلة ، مرت خلالها الدقائق على صدر أبي
قتادة مروراً ثقيلاً مرعباً ، كان أبو دجانة يهدئه ويبشره
ويواسيه ، وكان لا يسمعه .

أفاق بعد ساعاتٍ فهرع إليه أبو قتادة وقال :

أين جهاد ؟

رد أبو العباس بصوت ضعيف منهك آسف :

أخذوها

أخذ أبو قتادة بمجامع ثيابه وصرخ منها را وهو يهزه
هذا عنيفا :

من هم ؟!! من الذي أخذها ؟!!

أمسكه أبو دجابة يهدوه ويبعده عن أبي العباس ،
وقال أبو العباس بضعف :

جنود بشار .. الجيش النظامي .

حضر القائد أبو القعقاع مسرعا ، فانتفض أبو قتادة
نحوه صارخا :

سباغتهم الآن ونحضرها .

طلب منه أبو القعقاع بحزمه أن يجلس حتى يعرف
القصة ، أنصت باهتمام لآيات أبي العباس وهو يحكى ،
ولما انتهى أبو العباس قفز أبو قتادة ثانية وقال :

سباغتهم ونحضرها قبل أن يفعلوا بها شيئا .

صمت أبو القعقاع هنية ثم قال بحزمه المعهود :

لا .

ذهل أبو قتادة وقبل أن ينطق تابع أبو القعقاع :

إن المجاهدين لا تحركهم العواطف ولا الشهوات, لدينا خطة من مقر الخلافة ننفذها بحذافيرها, ونحن نمضي ولا نلتفت .

خار أبو قتادة كخوار الثور وهاج وماج فانصرف أبو القعقاع وهو يقول :

هذؤوا أصحابكم قبل أن يفعل ما يحاسب عليه .

في دهاليز سجون بشار كانت تئن جهاد المَا وخوفاً في زنزانتها , تحت وطأة الركالات التي تلقنها وهي في طريقها إليها , ووطأة ضميرها الذي خرج من تحت التراب يجلدها بلا رحمة , ووطأة البرد والبعد والتفكير والحيرة .

يجلدها ضمیرها بسیاط ملتهبة على ظهیر عارٍ خجل،
 خنتِ الله وأهلك، لحقهم العار في مصر، وها هو العار
 ينتظرك بعد قليل، استغرقت في أحلامك فصرت
 كعاهرة تهرب من أهلها لعشقيها! ، تقول جهاد لضمیرها
 : هاجرت من أرض الكفر إلى أرض الإيمان، أهلي كفار
 بالله العظيم!؛ فيبصق عليها ضمیرها ويقول ما أكذبك
 على نفسك!

فتح باب الزنزانة وانسل منه ثمانية أشخاص ينظرون
 إليها نظرة الذئاب إلى شاة انفردت عن قطيعها ، نظرت
 إلى أعینهم فرأت شرفها وهو يدنس ، وخدراها وهو
 يحطم ، وللحظة تذکرت أباها وخیل إليها أنه ما زال
 يئن بجرحه القاتل تحت التراب!

كادت تصرخ إلا أن قدم أحدهم إلى وجهها كانت أسرع
 ، وفي لحظات اجتمعوا عليها ومزقوا ملابسها ثم
 تناوبوا على هتك عرضها مثل الضباع .. أو الجرذان !

خالط صراخها ضحکاتهم الآثمة ، وحالطت دماؤها
 عرقهم القدر ، وكانت تتالم وتصرخ وتبكي وتنتحب

ولا سامع ولا مجيب .

وبعد ساعتين من العذاب تركوها ملقة على ظهرها في الزنزانة تنزف .. وتنزف .. وتنزف .. حتى انقطع النزيف ، وكادت تنقطع معه الأنفاس !

حينها كان أبو دجابة يقول لأبي قتادة :

والله لا يخزيك الله أبداً ، إنه ابتلاء وإن صبرت فليرينك الله ما تقر به عينك ، دعنا نفكر وحتما سنجده طريقة لاسترجاعها منهم ، وأنا متأكد أنها في عين الله

وكان أبو قتادة يضع رأسه بين يديه خائعا يرتعد جسده ، ورغم جرح أبي العباس إلا أنه لم يتغير عن ثبيت صاحبه ومواساته ، ودخل عليهم أبو القعقاع فقال بصوت شديد :

أنهوا هذه المهزلة الليلة ، خلال أيام سنباغت معسكر جيش الإسلام ، لا أريد مفاجآت .

نظر له أبو دجابة متفاجئا ، فابتسم له أبو القعقاع ابتسامة صفراء فاقعًا لونها ، ثم انصرف .

استنشقت أنوف الشوام تراب مصر تحت وطأة البرد والرعد ، تحت قطرات المطر الباردة ، في زاوية بعيدة من زوايا الدنيا ، ليست بعيدة لكن ما أبعد أصحابها !

طرق الحاج سلام الباب بعد صلاة العشاء ، طرقًا خفيفا متأنيًا لئلا يفزع رهى وخالتها ، فتحت أم مالك الباب فرأته فاستبشرت ، استاذن ودخل ومعه أكياس فاكهة وأرز ودقيق وزيت وسمن وسكر .

قالت أم مالك :

لا أدرى كيف سنقدر على شكرك ! الله وحده من سيكافئك !

نظر إلى الأرض تواضعًا وقال :

يا أم مالك ، نحن عباد الله والمال مال الله

صمتت ثم تابع :

وعندي لكم مفاجأة .

استغربت رهى وانقبض قلبها بلا مناسبة ، واستعجلت
أم مالك المفاجأة فتساءلت :

بشرنا يا ابن الكرام .

استنشق الحاج سلام نفسا عميقا، وأسند ظهره إلى
المقعد العتيق الذي يجلس عليه تحت سقف الغرفة
المهترئة، ثم قال :

لا يمكن لكم أن تعيشا وحدكما هكذا، لابد لكم من
رجل يحميكما ويكون لكم سندًا وظهرا في هذه
الحياة الموحشة .

زاد انقباض قلب رهى فتابع الحاج :

الخلاصة دون مقدمات مملة ، عندي عريش أحسبه من
الصالحين أتيث به لرهى ، رجل شهم من خيار عباد

الله ، مشهورٌ عندنا بالتفوّق والورع وحسن الخلق ، كما أنه ميسور الحال مهمب الجناب ، فماذا تقولان ؟

حل صمت يتبع الصدمات ، فيه اشمئاز وحيرة ، بغض وامتنان ! تذبذب على شفا جرف من التيه والسطح والعجلة والظلم .

وضعت رهى يدها على فمها ، وتابت أم مالك لحظة عن الدنيا ، ثم أغمضت عينيها ونظرت إلى السقف وقالت لنفسها يا جبار السماوات ، فاستبق الحاج سلام جوابهما قائلاً :

لا تستعجل ، غداً أتيكم بالعریس تریانه ثم أتلقي ردكم .. السلام عليكم .

وانصرف تاركاً إياهما في صدمتهما ، وأغلق الباب خلفه ، وانهمرت دموع أم مالك .

استمر الصمت ساعةً أو يزيد ، لم يقطعه إلا قول رهى تسمع أم مالك وكأنها تكلم نفسها :

بدأ القرف !

نظرت إليها أم مالك كأنها حسمت أمرها ، ثم قالت :

الأمر يستحق التفكير .

صدمت رهى ، وانفجرت في البكاء ، وقالت وهي تصرخ فيها :

هل تظنيني حجرا لا قلب لي ؟ زوجي مات من أسبوع !

زوجك هو ابني يا رهى ، لكن في هذه الدنيا .. لا يملك أحد الخيار لشيء .

زاد بكاء رهى فقالت أم مالك :

أتعلمين ؟ لم أكن أريد أن أتزوج أباً مالك ، وكنت أبكي ليلة زفافنا ، وصبر على .. ومع الوقت صار هو كل حياتي !

الزيجات لا تنبني على الحب فقط ، قد يأتي الحب بعد الزواج .

ردت وهي تبكي :

وقد لا يأتي ، لا أريد أن أحب أحداً غير أحمد .

الحديث عن الحب في مثل حالتنا عنه ، نحن مشردتان ، وكلها أيام وتلحق بنا بيان فنصير ثلات مشردات ، فماذا نفعل في هذه البلدة الغربية ؟ هل نتكفّف الناس ؟

صمتت رهى ، فقالت أم مالك :

زواجه وابني لم تجف تربته ليس بأهون على منك ، لكن الدنيا أقدر مما تصورين أيتها الصغيرة ..

تساءلت رهى ، من أين لها تلك الحكمة التي حلّت عليها فجأة لما وصلنا مصر ؟ ، وصمتت ولم تتكلّم ، فتابعت أم مالك :

غدًا يأتي العريس ، وحينها ليفعل الله ما يشاء .

مررت على رهى ليلة دكت جدران قلبها ، رأت أحمد في منامها يبتسم حزينا ، فقامت تصرخ وأغشى عليها ، وقالت لها أم مالك لما أفاقت استعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وعاودها الطيف فاستعادت فزاد تبسمه فصرخت ، ودارت الدنيا ألف دورة كان مركزها تلك الغرفة ، ورأت السقف يخُرُّ فوق جبينها فيتفجر رأسها ، ثم رأت أحمد يبكي .. ثم يضحك ، ثم يبكي .. ثم هزَّتها أم مالك تخبرها بأن الصبح قد شقشقا .. فعلمت أنه كان كابوسا لم يبق من أثره إلا دمعٌ على خديها ، ورعدة خفيفة في قلبها ، وقالت أم مالك أصبحنا وأصبح الملك لله .. الرحيم العليم .

ساعات وطرق الباب فانقبضَ قلب رهى ، ودقَّ رغم انقباضه دقًّا كقنابل بشار وقدائف روسيا وضحكات ترانب ..

كان الحاج سلام وحده ، يلبس بدلة أنيقة .. وفي يده بوكيه ورد أحمر ، رحبت به أم مالك وصمتت رهى ، دخل وجلس مبتسمًا ، صمتوا جميعاً لحظاتٍ ثم قالت أم مالك :

أخبرتنا أنك ستحضر العریس اليوم .

ضحك الحاج سلام ثم قال :

وها هو أما ماما !

صعق ببيان وصدمت أم مالك ، حاولت أم مالك أن تتكلم فخانتها قدرتها ، فقال الحاج سلام :

ماذا ؟ ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقـه فزوجوه ؟ ألم تجربـا على حسن خلقي وكرمـي ؟ لماذا تتفاجـآن ؟

قالت أم مالك : لكن .. ، فقاطعـها لفـورـه :

لكن ماذا ؟ هل تشککان في أخلاقي وديني ؟ هل هذا جزاء الإحسان إليكما ؟ أين قوله تعالى "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" !

ردت أم مالك :

ليس القصد يا حاج ، لكن أنت من سن والدتها رحمه الله

وما المشكلة ؟ هذه حجج واهية لا أرى لها موضعًا ، في الزواج لا يكون السن عقبة ! تزوج نبينا صلى الله عليه وسلم ستنا عائشة وهو أكبر منها بعقود ، وتزوج ستنا خديجة وهي أكبر منه بعقود .. العمر ليس عقبة !

قالت أم مالك :

إذن فتزوجني أنا !

صمت الحاج سلام ثم تبسم بخبيث وقال :

القلب وما يريد .. أنا أريدها هي ، ويبدو أنكما لم تحفظا لي الجميل ، وهذا يجعلني أخاف منكما وأعيد النظر في ائتمانكما على البقاء في هذه الغرفة ! فمن لا يحفظ الجميل قد يغدر ويفسد .

صمتنا وجلتين عاجزتين ضعيفتين فقال :

لن أستعجل ردكما ، كما أني لن أستعجل أخذ القرار في أمر بقائهما في الغرفة ، سأنتظر الجواب الليلة ، السلام عليكن .

في الشام ؟ .. لا شام !

لم يعد إلا الركام .. زفرات من هنا .. عبرات من هنا ..
تحت أنقاض تراءت جنة عند النظام

وتفقدت طفلة ثدي أمها ، فلم تجد إلا الفطام ! لم يعد لبئر ، لم يبق إلا دماء نزفتها أجساد الكرام ..

بكى الطفل ، فحاله الجندي يهتف في الظلام !
 فاستقرت طلقة الجندي في كبد الطفل .. فترافق
 الجندي طريراً .. هزجاً .. غرداً .. يهتف : مات الرضيع ..
 وعاش النظام !

كانت بيان في الفيلا العتيقة لا تكاد ترى الناس أو
 تسمعهم ، انكبت على مصحفها تقرأ القرآن وتبكي ، ثم
 تقرأ وتبكي .. ثم !



شعرت بالبرد كل لحظة ثلاث مرات ، مرة للبرد ومرة
 لأحمد ومرة كانت تجلد بها نفسها ألمًا وحسرة .

قررت ليالتها أن تذهب إلى أخيها مالك على الجبهة ،
 ماذا أفعل بين هؤلاء الحمقى في الفيلا؟ سرعان ما
 نسوا أحمد ، وأمه ، وزوجه ، ونسوني .. لا أحد يبكي
 أحداً في هذه الدنيا أكثر من ثلاثة ليالٍ أو أقل .

جمعت أمرها ، وانسلت في ظلام الليل كطيف لطيف ،
 بين الحشائش والزروع .. تطوي الأرض بخفة وسرعة
 استمدتها من نقطة سوداء نكتت في قلبها عندما

لامست قذيفة الطائرة بساط الأرض يوم الزفاف ، أقسمت لنفسها أن الشمس ستشرق يوماً على تلك المملكة التي غابت، وأن الدنيا سترکع يوماً أمام عرشها، وأن المحيط سينشق ليخرج القارة الضائعة، وقالت لنفسها أثرى أهلها ضيوعها كما ضيع أهلانا بلادنا؟ أثرى أحلام من فيها دست في التراب كما أحلامنا؟



توقفت ونظرت إلى السماء وقالت: لأنك تسمع وترى أطمئن، ولأنك ترحم وتكرم أصبر، ولأنك تقدر ولا تعجز أمل، ثم خالت جسدا خلفها يطاردها فأسرعت ، وأسرعت .. حتى وصلت بعد مغامرة ظنتها خطيرة إلى الجبهة ، نادى جندي الحراسة بصوت جهوري حازم .. اثبت وإلا سأطلق النار !

رفعت يديها للأعلى وقالت بخوف :

أنا بيان ، أخت مالك علوش .

لحظات و جاء أخوها من داخل المعسكر يركض مسرعاً
احتضنها ، و قبل ما بين عينيها ، وقال :

ما الذي جاء بك إلى هذا المكان الخطير يا بيان ؟
الفتى أعقل من ذلك !

بكت فضمها إليه وأخذها إلى غرفته ..

قال لها لما جلسا وهدأت :

الدنيا ستمر يا بيان ، كلنا تراب يتحرك على الأرض ..
ما أسرع الفناء وما أقرب اللقاء .

لا أستطيع يا مالك ، لا أستطيع أن أفكر مثلك .

زفر زفراً حزينة ثم قال :

غداً سيعلمك الزمان .

متى سأتحقق بأمي ؟

رتب لك الإجراءات ، أيام و تكونين عندها إن شاء الله

صمتت فتَّابع ممَازحًا :

أريدهِ رجلُ البيتِ من بعدي

نظرتُ إلى الأرضِ حزينةً وقالتْ :

بعدكَ ؟

ضحكَ مالكَ وقالَ :

ياللهِ من فتاةٍ كئيبةٌ ! ، لا تقلقي .. لا أنوي الموت في
الفترة الحالية .

ضحكَتْ فتفجرَ فجأةً من الخارجِ صرخَ ورصاصَ،
ودقَّ جرس الإنذارَ معلناً عن هجمةٍ مباغتةٍ ، فزعَ مالكَ
وارتاعَ خوفاً على أختهِ وأمرها أن تختبئَ تحتَ
المنضدةَ ، ووعدهَا أن كلَ شيءٍ سيكونَ بخيرَ ، ثمَّ
تناولَ سلاحهِ وانطلقَ يزارُ في الظلامِ !

في الكافيه كان آسر وآسيا يجلسان وحولهما ركام من الهموم، الفضيحة والعار والكره والبغض، وكانت آسيا تصبره بالله علّه يهدأ، أخبرها أن أمه ستجري عملية خطيرة لأجل جرحها الليلة، فقالت له ربك رحيم ودود

كان يعلم أن أمل أمه في البقاء ضعيف، وكان عقله مشتنا بين خوف وبغض وأسى وحسرة ! يجلس بجسده وروحه ممزقة في أتون حرب شتها جهاد وخاضتها أمه واستشهد من قبلها أبوهوها هو يضمد جراحه مع آسيا .

سؤال نفسه كيف سأحضر تلك الملعونة ؟ أين أبحث وكيف أبدأ ؟ من محمد هذا ؟ لعنة الله على الحمقى !

طلب من أحد معارفه أن يبحث له حول إجراءات التهريب لسوريا، علّه يكتشف طريقة لمراسلتها أو حتى الذهاب إليها !

وعلى اعتاب غرفة العملية كانت أمه على السرير ضعيفة هزيلة، مستلقية على السرير الأبيض، سرير

الإعدام، وفي يدها المحاليل الطبية معلقة تنظر إلى أمه بلا أعين، رأى غراب الموت قد حط على كتفها يعد ما تبقى من الأنفاس، علم أنه اللقاء الأخير فانفجر بين يديها باكيًا، علمت ما به فربت على كتفه وهمست باسمةً : لا تقلق ، الله الشافي.

تذكّر مرةً كان فيها صبيًّا يلعب في حجرها تقبل ثغره وتقول له : متى ستكبرُ يا آسر؟

ومرة جاء يبكي لما ضربه أحد الصبيان فاحتضنته ودارت به في الصالة حول نفسها حتى انفجر ضاحكًا !

ومرة مرض فمرضت، وعوفي فتعافت .. ومرة بكى فبكـت وضحـكـت .. ومرة سهر فـسـهـرـتـ وـنـامـ فـنـامـتـ

ومرةً ومرةً ومرةً وألف ألف مرة .. ما أقبح الذكريات على اعتاب القبور!

زاد بكاؤه وهوى على يدها يقبلها ، عانقها العناق الأخير ، عناق بث في روعه معانٍ لم تبتهـ الكلـماتـ على طولـ

أمدھا به ، قالت له :

أعدك أني لو خرجت بسلامة الله سأخطب آسيا لك بكى، ودخلت لعمليتها، وانتظر، وبعد ساعات خرج الطبيب ناعيًّا يصبره ويذكره بالله، وسالت دموعه على نحره، وجاءت آسيا فبكى لما رأت دموعه، وأرخي الحزن سدوله فاسود المكان، وقال الطبيب كل نفس ذاته الموت، فهمس آسر وهو يبكي : ومن النفوس من تذوقه مرات .

ثم لنفسه : حين تموت الأُم يبدأ السفر، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عننا بعده.

انقضَّ غبار المعركة الليلية مع انفلاطِ الضلالم عند الفجر، رمى الصبح أشعاته فلامست ظهرَ مالك علوش وهو ملقى على وجهه غارقاً في دمائه، بعد أن تلقى سبع طلقاتٍ في صدره !

فارق الْكَرِيمُ الدُّنْيَا بِوْجَهِ نِضْرٍ، وَعَيْنَيْنِ تَحْمَلَانِ الْحَبْ
وَالشَّفَقَةَ لِأَخْتِهِ، وَرَشاَشِ يَشَهُدُ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى بَسَالْتِهِ
حِينَ كَانَ الْلَّقَاءُ!

أَفَاقَتْ بِيَانَ مِنَ الْإِغْمَاءِ فَوُجِدَتْ نَفْسَهَا مَصْفَدَةً
بِالْحَدِيدِ، وَحْدَهَا كَانَتِ الْأَنْثِيَ بَيْنَ الْأَسْرَى، وَمَرَّتْ فِي
الصَّفِّ وَعَيْنُونَ الْجَنْدِ تَسْتَغْرِبُهَا، مَا الَّذِي أَتَى بِهَا إِلَى
مَثْلِ هَذَا الْمَكَانِ؟

مَرَّ الْأَسْرَى مُسْلِسِلِينَ خَلْفَ بَعْضِهِمْ بَيْنَ صَفَيْنِ مِنْ جَنْدِ
كَتِيَّبَةِ الْفَارُوقِ يَنْظَرُونَ إِلَيْهِمْ بِفَخْرٍ، سَمِعَتْ بِيَانَ صَوْتًا
يَتَغَنَّيْ شِعْرًا، صَوْتًا تَأْلِفَهُ وَشَعْرًا تَأْلِفَهُ! كَانَ الصَّوتُ
يَقُولُ:

وَكَنَا الْأَيْمَنِينَ إِذَا التَّقِينَا . . وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِيْنَا

فَصَالُوا صَوْلَةً فِي مِنْ يَلِيهِمْ . . وَضَلَّنَا صَوْلَةً فِي مِنْ
يَلِيهِنَا

فَآبُوا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايا . . وَأَبْنَا بِالْمَلُوكِ مَصْفَدِينَا

تتبعت بيان بعينيها وأذنها مصدر الصوت بين الصفوف بهدوء لئلا تستفز الجنود ، حتى وصلت إلى الصوت فكانت المفاجأة ! صرخت بأعلى صوتها :
غسaaaaان !! أخيبيي !!

ضدَّم أبو دجانية وانتفض ، نظر إلى الصوت فإذا به يرى أخته بيان علوش ! ، هرع إليها مهولاً بين الصفوف ، نظر إليها متعجباً ، عيناه تسألانها ما الذي أتي بك ؟! وخيم صمت يحمل في ثناياه العجب على الجميع ، هرولت بيان إليه تصارع أصفادها ، بصعوبة قطعت الأمتار التي بينهما ثم احتضنته وبكت .

اقرب أبو قتادة وأبو العباس يستخبران صاحبها عن ما يجري ، ورأى القائد أبو القعقاع المشهد فاقرب بخطوات ثابتة ثم قال :

ما الذي يحدث ؟

نظر إليه أبو دجانية ، ووضعت بيان وجهها في صدر أخيها لئلا ترى الدنيا ثانية ، وقال أبو دجانية :

تعلم أن هذه الكتبية التي هاجمناها كان فيها أخي مالك ، وقد تفاجأت الآن بأن بيان أخي كانت معه .

رد أبو القعقاع بحزم واستنكار :

ثم ماذا ؟

تفاجأ أبو دجانية من رد فعل قائدہ، وقال في نفسه ألم يكف هذا الأحمق عن التعالي كعادته، وأجاب :

ثم لا شيء ، فكوا أصفادها ، وسأصحابها حتى أوصلها إلى مكان آمن لأحد أقربائنا .

غضب أبو القعقاع ورد بقسوة :

لن يحدث ، منذ متى وأنت تصدر الأوامر ؟

ذهل الجميع ، وثار أبو دجانية إلا أنه تماسك ، فقال :

فما أوامرك إذا يا حمدا ؟

زاد غضب أبي القعقاع لما ناداه باسمه دون كنية ، إلا أنه أسرها في نفسه ولم يبدها ، ورد :

أختك كافرةٌ بالله العظيم ، مرتدةٌ لأنها والت الكفار الذين يحاربون الخلافة الإسلامية ، ويحاربون شرع الله ، ويجري عليها ما يجري عليهم من أسرٍ ورقٍ ، أو قتلٍ ، أو فداء ، وإن أنت واليיתה كفرت مثلها لأن موالة الكافر كفر ، وإن اعترضت كفرت لأنك تعترض على حكم الله في الكفار .

ضم أبو دجانة ، وازدادت بيان تمسكاً بثيابه ، وغوضاً بوجهها باكيَّةً في صدره ، وقال أبو دجانة :

إذن هبها لي ، أو أفتديها منك

رد أبو القعقاع ببرود :

أرفض ، نحن نحتاج الخدمة أكثر من حاجتنا للمال ، ستبقى أمَّةٌ عندنا .

تفجر بركان أبي دجانة وصرخ فيه :

إذن تنتظر مني أن أرى أختي تساق لخيمنتك لتضاجعها ، وأحضر لك الماء الساخن لتغتسل بعدها ؟

حافظ أبو القعقاع على بروده ورد :

لا تنفوه بكلماتٍ قد تندم عليها حينما تهدا .

ثم صرف بصره لأحد الجنود وقال له بلهجة الأمر :

أحضرها إلى الصف ثانيةً .

أشهر أبو دجانية رشاشة وقال :

أقسم أنه لو اقترب منها سأقتله .

عيّنا حاول أبو قتادة وأبو العباس أن يحتويا الموقف ، وأشهر أبو القعقاع مسدسه وصوبه تجاه أبي دجانية ، وقال :

ما تفعله خيانة عظمى ، أمامك خمس ثوانٍ لتلقي سلاحك .

صمت الجميع ، وتوقف الزمان لحظة أو لحظتين ، وتفجرت الأحداث من جديد ، وقال أبو قتادة لأبي دجابة ألق سلاحك ولا تقلق ، سحلها حالا ، وزادت قبضة أبي دجابة على رشاشه ، وقبضة بيان على ثيابه ، وارتفع عوتها ، وارتفعت ز مجرثه ، وعد أبو القعقاع .. خمسة ! ، واقترب أبو العباس وهو بعد ما زال مصابا يحاول انتزاع سلاح صديقه وتهديته فضربه أبو دجابة على وجهه بظهر رشاشه فخر على الأرض لشدة الضربة ، وعد أبو القعقاع .. أربعة .. ثلاثة ، واشتد أحمرأز أبي دجابة ، وابتعد الكل عنه إلا أبو قتادة يذكره بالله ، وعد أبو القعقاع اثنان .. ، ووجه أبو دجابة سلاحه إلى أبي القعقاع فأطلق أبو القعقاع لفوره رصاصته فاستقرت بين عيني أبي دجابة !

وهاجم الصمت الجميع ، وانقض عليهم الفزع ، وخر العملاق على الأرض وفوقه سقطت أخته بيان مغشيا عليها ، وهاج أبو قتادة وصرخ حتى كاد ينشق السحاب لصرخته ، يصرخ ألف مرة ومرة ، ألف مرة لجهاد ، ومرة لأبي دجابة ، وقام أبو العباس من على

الأرض يزحف تجاه صاحبه ، وضخت الشمس فجأة حرارتها على الجميع ، وأمسك الجنود بأبي قنادة وأبي العباس لئلا يرتكبوا حماقةً تلحقهم ب أصحابهم .. وأودع أبو القعقاع مسدسه في حزامه ، ثم أعطى الجميع ظهره وانصرف قائلاً :

أمامكم دقائق لننهي هذه المهزلة ونتحرك .

الفصل الثالث

الأيام خزائن المصائب ، تحبل بالغيب ، وتلد الرزايا ..
ترضع الصغير لتفطمها عن الصبر !

على شاطئ الزمان ثمت مقبرة ، نقش عليها : هنا يرقد
حمقى .. ظنوا أنهم لا يموتون.

وعلى الضفة الأخرى ثمت مقبرة أخرى منقوش عليها :
توسعة للمقبرة القديمة ! ألا ما أكثر الحمقى !

تزوجت رهى بالحاج سلام ، أو قل الفاسق سلام ،
أبدى لها عن وجه عفن كان يختبئ تحت ثياب "الحاج"
! ، تزوجها سراً لئلا تعرف "أم العيال" بأمره فتنغمس
عليه عيشه ، قال لها يوم الزواج ومعه صاحب له :
وليك الآن صالح من صالح المؤمنين ، وصديقى هذا
أصلح من عرفت بورسعيد !

كان لا يأتيها إلا إذا أراد أن يبصق فيها شهوته ، يتصل قبلها بساعة لتخرج أم مالك من الغرفة لأي مكان ، ثم يذهب فيقضي وطره ويرتدي ملابسه ويلاقى لها بعض المال ، فينصرف !

ينصرف وتبقى نظرته الأخيرة ، القاتلة ، المقرضة !

كان يأتيها ورائحة الخمر تفوح من بين أسنانه المتهشمة ، يمسها بجلده المقرف العجوز ، تشمئز منه ويختيل إليها أنها تنام مع ضفدع كبير ببشرة ذابلة لزجة ورائحة كريهة عفنة ، وطاقة - لحسن الحظ - سرعان ما تنفدا !

كان يستلذ بسبها وضربيها وتعذيبها وأحياناً جلدتها إن أداء "كيفه" إلى ذلك ، وكانت ثئن صامة بلا أنيين ، وتتوجع بلا تنحيدة أو زفرة ، كانت حمالة في قلبها الحطب ، سرعان ما يشتعل الحطب ! ، كانت تود لو تمرّغت بعده بالتراب سبعا .. أو سبعين

ولأننا بشرٌ فسرعان ما يلهينا الروتين عن الألم ، سرعان
 ما يصبح الألم روتيناً مملاً ، ويأخذ الحزن والتقزز -
 وكل المعاني القبيحة - مكانه المحترم المميز في
 جدولنا اليومي ، أو الأسبوعي في حالة رهى إن أردنا
 الدقة ، فالحاج سلام - رغم كل شيء - قد جاوز
 الخمسين !

وكانت رهى مع كل ذلك تدخر ما استطاعت من النقود
 التي يتركها لها ، وحين تأسّلها أم مالك عن السبب ترد
 بطريقة لم تعتدّها منها :

القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود .

ذات مرة جلست رهى وأم مالك تتذكّران حلب ، ورغم
 انزعاج رهى من حكايات أم مالك المتكررة إلا أنها
 كانت تستمتع رغم هذا الانزعاج ، تستلذ بهذا الملل ،
 وكأنه خالط منها اللحم والعظم .

أين بريق كان يرى في عينيك فيأس ؟ وبسمة حزن
 بين شفتيك لا تمن ولا تفتدي بل تقتل ؟ أين أحمد منك

؟ بل أين أنت منه ؟

قالت لها أم مالك :

أتعلمين يا رهي ، لقد تغيرت كثيرا !

تعجبت رهي وردت :

كيف ؟!

ضحك أم مالك وقالت :

لم تعودي تلك الفتاة البريئة ، أشعر أنك صرت صاحبة
جزارة !

بادلتها رهي ضحكة ثم قالت :

الغربة تعلم .

صمتتا قليلا ، ثم قالت أم مالك بعد أن تنهدت تهيدة
يائس :

اما زالا لا يردان ؟

بلى ، وقد بدأ الشيطان يفعل برأسى الأفاسيل !

تنهدت رهى وقالت وعيها تكذب ما ستنطق به
شفتها :

كل شيء سيكون على ما يرام .

على باب آسيا كان ثمت آسر ، يستغيث بعقله من حمق
قلبه ، ولا مغيث !

بعدما ماتت أمه تمزع قلبه وتهتك نياطه ، عبئا حاول
أن يبحث عن أخيه جهاد ، ولا معلومات ، وعبئا حاول
أن يوقف عقله عن التفكير في مستقبله وأسيا ، قتله
الأرق فقال لنفسه ساقطع الشك باليقين وأتقدم
لخطبتها ، هو يعلم أنه كاذب في شكه وفي يقينه
المنتظر !

تذكّر تحذير آسيا، ورجائها له أن لا يفعل، وإن خبارها له عن أخلاق أبيها وأخيها اللذين لا يُنتظّر منهما خير، وتذكّر وعده لها أن كل شيء سيكون بخير ..

على باب بيتها، وببرّته الأنiqueة، وبوكّيه الورد الأبيض، للحظاتٍ خال فيها أن الزمان كان يُنتظّره، وأن العقارب آلت على نفسها ألا تدور حتى ينهي التفكير في قراره؛ أجمع أمره وطرق الباب بيد مرتعشة، جرّب أن يخمن ما يُنتظّره فارتدى إليه خياله خاسئاً وهو حسير.

فتح الباب، وكان المكان مهياً للعرّيس المنتظر الذي حدّث آسيا أهلها به بعد أن يئست من ثنيه عن قراره، وكان أبوها وأخوها وأمها يتّساعون في أنفسهم عن المشكلة البسيطة التي أخبرتهم آسيا أنها موجودة في العرّيس، دخل آسر وقدماه تهدّداته بالخذلان، أول ما رأى كان وجه أبيها وفي فمه سيجارة تشتكى إلى الله منه، وفوقها أنفٌ ذابلٌ دقيق، وفوقه عينان سوداوان لمحاتان، تذكّر الرائي من أول نظرة بجهنم أو سقر!

بجواره كان أخوها الأصغر "خالد" ، أكبر منه بسنوات معدودة ، مظهره يوحي بأنه سائق تاكسي ، أو ربما توكتوك! ، لم يأخذ من أبيه إلا عينيه وجهنم وسقر !

سأله نفسه ، كيف خرجت هذه من هؤلاء ؟ سبحان الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ! فالق الإصباح !

جلس على الكتبة ، وحل صمت مريب ، ينتظر الحاج "صبري" أبو آسيا أن يخبرهم آسر بأن أخيه الأكبر قادم بعد قليل ليخطب آسيا ، وتنتظر آسيا وأختها من خلف ستار انفجار القنبلة !

تنحنح آسر وقال :

السلام عليكم يا عمي .

أبدى الحاج صبري بشاشةً وقال :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يابني ، يا ألف أهلا وسهلا ، نورتونا والله

البيت "منور" بأهله يا عمي

الله يكرمك ، وأين الجماعة ؟

ثم مازحاً :

لا بد أنهم أرسلوك قبلهم لتعطينا بوسامتك فكرة عن وسامه العريس حتى يأتي .

احمر وجهه آسر ثم بتوتر قال :

أنا العريس يا عمي ، أتيت لأطلب يد ابنتك آسيا

انتفض الحاج صبري ، وفوجئ خالد ، وحل صمت طويلاً في زمن قليل ، حاول آسر أن يستبق الأحداث فقال :

أعلم أن هذا قد يبدو غريباً ، لكنني فكرت كثيراً وأنا متأكد تماماً من قراري .

قام خالد وهو يصبح :

هل أنت سكران يا ابن العاهرة وأتيت لتتسلى علينا ؟ !!

صدم آسر من رد فعل خالد العجيب ، الذي يتناسب تماماً مع تشوّهات وجهه الفاضحة عن تاريخه السابق ، وقال الحاج صبري بنبرة غاضبة :

هل تهزأ بنا أيها الطفل ؟ عريس ماذا وزفت ماذا ؟!
أنت أصغر من أخيها الأصغر !

حاول آسر أن يتكلّم ، إلا أن خالد قاطعه بفجاجة وقبح
قائلاً :

يبدو أنك مراهق بلغت حدّيّاً وقد شوّهت الأفلام
الجنسية خيالاتك فجعلتك تتقدم لفتاة في سن أمك ،
اخْرُج يا ابن العاهرة من المنزل قبل أن أقتلك !

قام آسر مذهولاً من وقاحة أخيها ، كثيراً ما حكت له
عنه لكنه لم يتصرّر أن وقاحتة بلغت هذا المبلغ ،
ارتَفَعَت الأصوات وخرجت آسيا من خلف الستار وأمها
وأختها تحاولان منعها ، خرجت تدافع عن آسر وتهاجم
أخاهما ، فشدّها خالد من شعرها وهي تصرخ وجّرها

إلى الحجرة الداخلية وسبابه يصل إلى آخر الشارع
وصوت ضربه لها يهز جدران المنزل ، وقال لها أبوها :
أهذا هو العيب البسيط أيتها الفاجرة ؟!

ثم طرد أسر من المنزل ، طردا سفك دماء كرامته ،
فخرج وهو ما زال تائها لم يستوعب ما رأه ، يظن
نفسه في حلم ، وينتظر لحظة يسقط فيها من على
سريره ليفيق من هذا الكابوس القذر فيحمد الله ثم
يقلع عن فكرة التقدم لها ، لكن هيئات هيئات ! هي
الحقيقة بعلقها !

كاد أبو قتادة يموت حزناً وكمدرًا، وبين الذكرى والعجز
يُهلك الرجال !

يفكر كيف سينقذ جهاداً من مخالب الجيش النظامي ،
وبأي طريقة سيخرجها من دهاليز سجونهم ، ثم يتخيّل
ما الذي ينالها الآن فيرتعد !

وكانت جهاد في أعماق الزنزانة تستشعر جنينها في أحشائهما كأنه يتحرك!، بعدها ظهر الحمل على بطنها مع تكرار الاغتصاب الجماعي يومياً، يهياً إليها أن خنزيراً سيخرج من بين قدميها عند الوضع! تبغضه وتشمئز منه بقدر بغضها لأبيه.. أو آبائه!!

ورغم أنها في أيامها الأولى إلا أنها كانت تتوهם ركلاته وحركاته، تتوهםها طعناتٍ يكمل بها ضرب أبيه من الخارج ! بكت حتى انشق حلقها فلم يجد البكاء، وارتعدت من البرد والألم والخوف والندم فلم يقدم ولم يؤخر!

استاحت من أن ترفع كفيها وعجزت عن الدعاء، كان بينها وبينه سوراً من لهب ونار! ترددت أن تتخذ القرار، عجيب أن الخوف كان يدفعها إلى المسارعة به! بحثت في جنبات قلبها عن شفقة تحملها لهذا الجنين فلم تجد إلا قيحاً وصديداً، بقدراً ما بصدق فيها أولئك الخنازير شهواتهم، وقدراً مزقاً جسدها بأظافرهم وألسنتهم!

قررت بعد تردد، قامت ببطيء وعجز إلى صحن الطعام الحديدي، أمسكته فاهتزت يدها من البرد، تأملته لحظات ثم بدأت بضرب بطنهما به بكل ما لديها من قوة وعزم، بكل ما لديها من كره وحقد وندم، وعار وخزي وتقزز!

تابعت الضربات والألم، والصرخات التي لا تلفت الأنظار في الزنازين!، تسبّه بأبيه وتضرب بطنهما لتتخلص منه!، شعرت أن هذا وحده لن يكفي فظلت تقفز وتضرب الأرض بقدميها بكل قوتها، وتصرخ ثم تضرب بطنهما بالصحن، ثم تقفز وتصرخ، وتسارع أنفاسها وتعالى صرخاتها ثم تضرب بطنهما بكل قوة وبغض، ثم تلعن الأيام والبشر والناس، وتلعن المقادير ثم تستغفر، ثم تضرب بطنهما ثم تقفز، وبدأت تنزف وزاد الألم فزاد الصراخ، وزاد اليأس والجزع والخوف، وزادت لفحة البرد فانتفضت ثم ضربت بطنهما بشدة، وتدفق الدم فخررت على وجهها ملقاةً على الأرض، تنزف ويختفت نفسها، ثم تنزف .. وتنزف.. وتبتاطأ النبضات، وتخفت الأنفاس .. حتى اختفت !

تردد أبو قتادة مراتٍ قبل أن يرسل لمصطفى الشري夫، لا يدرى أي دافع يدفعه إلى مناقشته، ومجادلته! أهو العجز الذي ينسكه التناحر؟ أم هو الحزن الذي يذهبه الانشغال؟ أم هو طرف خفيٌّ لشكٍّ تزيد أن تنتصر عليه! وتأبى أن تفرّ منه؟

أرسل له، وقد علم موعد تواجده على الفيس بوك :

يا شيخ مصطفى.

فرد الشيخ مصطفى بعد قليل:

السلام عليكم

وعليكم

أسرّها مصطفى في نفسه ثم تابع :

كيف حالك ؟

بخير، كنت أريد أن أسألك .. أليست موالاة الدولة الإسلامية أفضل من موالاة الطواغيت ؟

تفاجأ مصطفى بمسار الحوار الجديد، واستجتمع تركيزه وأجاب :

الولاء والبراء هو أوْتُق عرى الإسلام، فالولاء هو صرف معاني الانتفاء إلى أخيك المسلم، والبراء هو الانسلاخ من الكافر أياً كانت قرابته منه ..

لكن الولاء لا يعني الموافقة التامة، فنعم لأنك مسلم لك درجة من الولاء لكنني أيضًا أتبرأ من بدعك الغليظة، وقتلك وسفتك للدماء وتکفيرك للمؤمنين، حتى وإن كنت أقرب لي من الكفار إلا أنك عدو طالما تسفك الدم الحرام وتکفر المسلمين .

رد أبو قتادة :

فماذا أستفيد إذن من موالاتك لي؟

تستفيد أنك أقرب لي من الكافر، فإن جاء الكفار لمحاربتك ظلماً فأنت أقرب لي منهم، لكن لا يعني هذا موافقتي على ظلمك وضلالك، بل يجب أن تتوب إلى الله منه، وأن تتحدوا مع الفحائل الأخرى في قتال

مجرمي بشار و مجرمي روسيا وأمريكا وإيران الذين
 أفسدوا سوريا ودمروها وأنتم ساعدتموهم على ذلك
 بتطرفكم، فوفرتم لهم مبرراً لهذا الدمار !

لكن الفصائل الأخرى لا تقبل التعاون !

بالطبع لن تقبل ! لأنكم تريدون منهم أن يكونوا تحت
 رايتكم، وتعتبرون أنفسكم دولة الإسلام ولكم سلطان
 على الناس كلهم! وما أنتم إلا فصيل مثلهم .. فالتعاون
 يكون بين أقران وآنداد، لا بين رئيس ومرؤوس !
 اتحدوا جميعاً في مواجهة الكافر المحارب الذي يدمر
 بلاد سوريا !

اغتاظ أبو قتادة، وزفر بضيق ثم كتب :

تريدين أن نتعاون مع الفصائل المرتدة التي تحاكمت
 إلى الطاغوت وتفاوضت معه !

ألم أقل لكم أن مشكلتكم الرئيسية هي جهلكم بالشرع
 ؟ من قال أن التفاوض مع الكفار تحاكم لغير ما أنزل
 الله؟ من قال أنه حرام؟ ألا تعلم أن التفاوض معهم قد

يكون وجبياً لو كان فيه مصلحة المسلمين؟ ألا تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم تفاوض مع الكفار في صلح الحديبية وعقد معهم صلحاً؟ من صور لكم أن المسلم ثور ينطح ولا يرى ولا يسمع؟!

أولى لكم من هذا الجهل أن تتحدوا ضد بشار ضد راية الطاغوت الحقيقي .. لا أن تتنازعوا وتکفروا بعضكم فتساعدوا الطاغوت بتفرقكم !

قاطعة أبو قتادة قائلاً :

حتى لو لم يكفروا، فلا اتحاد مع المبتدةة الضلال !

بل معهم اتحاد ضد الكفار، ألا تعلم أنشيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، الرجل الذي ظلمته داعش لما انتسبوا إليه، أفتى بالاتحاد مع الذين أعلنوا إسلامهم من التتار رغم بدعتهم وضلالهم ضد الكفار المحاربين؟

لذلك فرغم أنني أراكم مبتدةة ضللاً، إلا أنه لو قررت أحد دول الكفر أن تغزو الكعبة مثلاً لوجب الاتحاد

بَيْنَا جمِيعاً فِي حمايتها، رَغْمَ اعْتِقَادِي بِضَلَالِكُمُ الْمُبِينِ،
وَغَلُوكُمْ وَخَرْوَجُكُمْ عَنْ صَحِيحِ الدِّينِ !

رد أبو قتادة :

لَا أَخْفِيكَ سِرًا، هَذَا الْبَرُودُ الَّذِي تَتَعَالَمُ بِهِ مَعَ أَوْلَئِكَ
الصَّحْوَاتِ الْكُفَّارُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنِي أَحْكَمُ بِكُفْرِكَ، فَهُمْ
كُفَّارٌ وَإِنْ رَغَمْتُ أَنُوفَ .. وَمَنْ لَمْ يَكُفُّرْ الْكَافِرَ فَهُوَ كَافِرٌ
مُثْلُهُ !

فَكَرْ مُصطفى قليلاً ثم أجاب :

حَتَّى لو سَلَمْنَا بِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ، فَقَاعِدَةٌ "مَنْ لَمْ يَكُفُّرْ الْكَافِرَ
فَهُوَ كَافِرٌ" هَذِهِ فِي الْكَافِرِ الْمُتَفَقُ عَلَى كُفْرِهِ، الَّذِي كَفَرَهُ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ .. مُثْلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى
أَمَا الْكَافِرُ الَّذِي لَيْسَ فِي تَكْفِيرِهِ نَصِّ، بَلْ تَكْفِيرُهُ
بِاجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ ؛ فَمَنْ لَمْ يَكُفُّرْ لَا يَكُفُّرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ
كَثِيرًا مِنَ الْعُلَمَاءِ كَفَرُوا أَبْنَ عَرَبِيٍّ وَالْحَلاجَ وَجَلَالَ
الدِّينِ الرُّومِيِّ وَابْنَ الْفَارِضِ وَالْفَاطِمِيِّينَ الَّذِينَ حَكَمُوا

مَصْرُ فِي فَتْرَةٍ مِّنَ الْفَتْرَاتِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكْفُرُوا مِنْ لَمْ يَكْفُرُهُمْ ؟

لأن كفرهم إن كان تبيّن لبعض العلماء، فلا يستلزم أنه تبيّن للجميع، بل قد يخفى على البعض .. وهذا كلّه بافتراض أن هذه الفسائل كافرة، فأيضاً لا يمكنك أن تكفرني لأنني لا أكفرهم ، فكيف وهم مسلمون لم يرتكبوا الكفر؟

تحير أبو قتادة، ثم قال :

أتريد لعقلي أن يستوعب أن أراهم على موائد الكفار
ثم لا أحكم بکفرهم؟

تبسم مصطفى الشريفي، ثم أجاب :

يابني، ليس كل تعامل مع الكفار كفرا

بل منه ما هو مباح مثل البيع والشراء والإجارة
والتجارة ..

ومنه ما هو حرام مثل أن يتزوج الكافر من مسلمة وأن تحبهم رغم كفرهم بالله، وأن لا تبغضهم لأجل كفرهم، وأن تتشبه بهم في غير الكفر ..

ومنه ما هو كفرٌ كان تتشبه بهم في الكفر فتحمل الصليب على رقبتك مثلاً، أو تخرج في جيش الكفار الذي يرفع راية الكفر ويعلن الكفر الواضح ليحارب جيش المسلمين الذي يرفع راية الإسلام ويعلن الإسلام، أو أن تحب الكافر لأجل كفره، فتحب النصارى لأنَّه يعبد الصليب، وغير ذلك ..

أما أغلب صور موالة الكفار فليست كفراً أصلاً، بل الأغلب محرم بلا كفر، فتعميم كل صور الموالة على أنها ناقض من نواقض الإسلام خطأ كبير، وضلال مبين !

فضلاً عن أن هذا التعامل الذي تتحدث عنه وتكفر لأجله الفسائل المجاورة لكم في الحرب ليس موالة أصلاً، بل هي مفاوضات مباحة، وقد تجب لو كان فيها مصلحة المسلمين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم

في صلح الحديبية، وأخبرتك بذلك منذ قليل ..
فتهربت من الرد عليه ! . . .

شق بهيم الليل طرق شديد على باب رهى ، مع صياح مفزع ، انتفضت هي وأم مالك من على فراشهما ، سمعت صياح الحاج سلام ففتحت الباب مستغربة ، فانقض عليها مخمورا ينهشها بشراسة ويمزق ثيابها من عليها ، فزعت وقاومته ونبهته لوجود أم مالك ، فقال وهو مستمر في تمزيق ملابسها :

فلتذهب أم مالك إلى الجحيم

بكت أم مالك من الفزع وقالت وقد انفجرت وعجزت عن التصبر :

أما تستحي ! نحن في منتصف الليل أين سأذهب الآن !؟

وكان الشيطان تلبس به بعدهما تكلمت ، توقيف فجأة ونظر إليها بعينين حمراوين يعتليهما السكر ، ثم توجه إليها يتطاير منه شرر الغضب ، ودفعها دفعه أسقطتها أرضاً وصرخ فيها وهو يهدى :

تأمريني أن أستحي أيتها الداعرة ؟! أهذا جزائي أنني تلقتكم من الشارع قبل أن تنهشكم الكلاب ؟

واستمر بضربيها بهستيرية وهو يصرخ مخموراً حتى كاد يزهق روحها ، يضرب ويسبها ويطعنها في عرضها وعرض أمها وأم أمها ومن رآها أوجاورها يوماً ، خفتت أنفاسها شيئاً فشيئاً ، ثم فجأة صرخ الحاج سلام متأنقاً وسقط لفوره على جنبه دون حراك !

استعادت أم مالكوعيها بصعوبة ففوجئت بسكين استقر في عنق الحاج سلام ، وبجواره رهى منها رهلاً تتحرك من الذعر ويدها ملطخة بدمائه ، وبدأ ديك الجيران يصبح مؤذناً باقتراب الفجر !

دارت الدنيا دوراتٍ سريعة، وارتعد جسد رهي ، وببدأت
في البكاء والتحبيب في هدوء خوفاً من أن ينتبه
الجيران ..

تقسم بهميس شديد لأم مالك أنها لا تدري ماذا حدث،
وتبكي بخوفٍ وروع ..

واشتدَّ الديك في الصياح !

استجمعت أم مالك قواها في لحظاتٍ، كما تفعل عند
كل رزية ومصيبة، ثم قالت بحزن وهي تفتش جيوب
الحاج سلام لتسنطرخ ما معه من مال :

اجمعي أمتغتنا وأحضرني كل المال الذي معك ، سررحل
بعد خمس دقائق .

قامت رهي مفروعة تجمع الأمتعة وتحضر المال من
مخبيه ، وفي دقائق انصرفتا إلى غير وجهة ، تسابقان
الفجر ، وتنزفان الشام ، وتفران من الجريمة ، الجريمة
النبيلة !

استمرّ خالد في ضرب أخته، وساعده أبوه في منع أمها وأختها "نور" من الدفاع عنها، ضرباً أليماً مبرحاً، كأنه ينتقم لحياته البائسة بضرب هذا الجسد الضعيف الهزيل !

كان لا يرقب فيها عند ضربها إلا ولا ذمة، رمى بها على الأرض وأوجعها ضرباً بقدمه، في بطنها وصدرها بل وحتى وجهها، كانت تصرخ ولا يستغرب الجيران، طالما صرخت أمها على مَرِّ السنوات حتى صار الصراخ عندهم معتاداً !

مع استمرار الضرب تغيرت نبرة صراخها واستفرغت ما في معدتها ثم سقطت مغشيا عليها، ارتعد أخوها وفزع، شعر بأنه مُرق شيئاً ما بأحشائهما، أو ربما حطم جزءاً ما برأسها، هرع إلى الطبيب فلما حضر أخبرهم بأن هناك اشتباه بارتجاج في المخو تحتاج إلى تدخل جراحي في أسرع وقت، ثم أعطاهما موعداً بعد يومين

لتنفيذ العملية عنده في المشفى ، مع مسكن مؤقت للألم .

لما أفاقت آسيا اتصلت بأسر من هاتف اختها وهي تتاؤه من الوجع، وتکاد تذوب خجلاً منه وأسفًا ، أخبرته بما حدث ، وبالعملية الطارئة ، فزع وطلب رؤيتها فتحاملت على نفسها وتسلى لمقابلته في مكانهما المعتاد ، فلما التقته بكت خجلٍ فتبسم وقال لها :

أعلم أنه لا ذنب لك ، لا تعتبرني نفسك طرفاً آخر يحتاج للاعتذار، أنا وأنت طرف وهم طرف آخر .

استمررت بالبكاء وأخبرته أنها خائفة من إجراء العملية ، فقال :

شكّة دبوس ، ستخرجين بسلامة الله لتجديني أنتظر بسمتك !

تابعت دموعها التدفق عنوة من بين أجفانها، وأخرج لها آسر ظرفاً فيه نقود، ثم دفعه إليها وقال :

هذا لأجل العملية ، أعلم أنه لا يتوافر معك مال الان .

تمنعت ، وحال لأسر أن الشمس تضحك ، فضحك قائلاً :

ستردinya رغماً عنك فيما بعد لا تقلقي ، هي قرض لا هدية .

نظرت إليه باسمة ودموعها على خديها وقالت :

كاذب .

فتبتسم وقال :

طبعاً !

صمت قليلاً ثم تابع :

أعدك أني سأجد طريقة أخرى لاقناع أهلك بالزواج منك ، لكن بعد العملية ، أعدك أني لن أ Yas .

و قبل أن ترد فوجئت بأخيها خالد يقف أمامهما وعيشه تقسمان بالشر والضر ، علمت أنه كان يتبعها خلسة

حتى وصل إليهما ، أمسك بعنق آسر وصفعه على وجهه بلا سابق إنذار ، أما آسر فتبسم ولم يقاوم ، صرخت آسيا فلطمها خالد على وجهها ، واستمر بضرب آسر ضرباً مبرحًا نزف منه فمه ووجهه ، واستمر آسر بالتبسم كالأبله دون مقاومة لثلا يتجمع الناس فتفتضح آسيا ، واستمر خالد بضربه وسبه ، وتجمع الناس رغم حرص آسر ، بصعوبةٍ خلصوا آسر من براثن خالد مع استمراره في سبّه وقذفه والسعي جاهدًا لضربه، وجر خالد أخته إلى البيت وهو يضربها ويلعنها ويتوعدّها ، وفرت آسيا من يده فسبقته إلى المنزل ، ونظر آسر للأرض ثم انصرف .

لحق بها خالد في البيت ، وقبل أن يهاجمها رفعت سكيناً وصرخت في وجهه بما تبقى لديها من طاقة وعزم فأفزعته ، قررت أن تخرج له ولأبيها ما خرّنته في قلبها طوال هذه السنوات ، قالت وهي تصرخ وتبكي :

أيها السكير القدر ، أقسم بالله أن يستقر هذا السكين في قلبك لو لمستني ، اللعنة عليك وعلى هذا البيت

الذى لم أجده فيه يوماً سكناً ولا بيتاً , هل حقاً ت يريد أن تقنعني بأنك تغار مثل الرجال ؟ لأنك رجل تعود إلينا كل يوم مخموراً سكران ؟

وقفت أمها تبكي وترجاها أن تصمت , فلم تلتفت وتابعت :

أم ت يريد أن تكون مثل أبيك حينما يستعرض فتوته ورجولته بضرب أمك ؟ دع الغيرة للرجال , واجلس أنت وهذا القدر كالنساء , واعلما أن هذا الذي سببتماه بالأمس نعله أشرف من رأسكم ..

بأي حق تعتبران أنفسكم مسؤولين عنى , وأنتما طوال حياتي سببتما لي الألم والعار والفضيحة , أنتما السبب في أنني لم أتزوج إلى الآن , فكلما تقدم لي عريس فرّ مني فراره من الأجرب بسبب بيتي ال哉در !

وهذا الأخير لم تتركا له الفرصة ليثبت لكم أنه أقدر على إدارة بيت منكم , وأقدر على تحمل مسؤوليتي وأولادي منكم .

اقترب خالد منها بغيظ فهدته بالسكين وأوعدته فتراجع ، وقبل أن تعود لمعركتها اشتد عليها ألم الجرح ثانيةً فصرخت وسقطت على الأرض وهرولت أمها إليها تبكي وتصرخ ، وتسكب وتلعن ، ثم أخذتها إلى الغرفة وأعطيتها المسكن ، وتناولته وهي تبكي وتقول : لا تقلقوا .. غداً سأموت وترتاحوا .

سأله أبو قتادة مترددًا، قلقاً :

لماذا تقول أن الدولة الإسلامية ليست دولة الخلافة ؟

فأجاب مصطفى الشريفي :

يا بنى .. هل تظن أن الأمر بتلك السذاجة ؟ هل تظن أنه إن اتفق خمسة آلاف شخص على أن منهم واحداً هو الخليفة يصير بذلك خليفة المسلمين ويجب على المليار ونصف مسلم أن يبايعوه ؟ ألم يُطرح في ذهنك هذا التساؤل من قبل ؟ ما رأيك لو جمعت أصدقاء

وفعلت نفس ما فعلتم وطلبت من العالم كله أن
يبيأعني كأمير للمؤمنين !

أجابه أبو قتادة :

لكننا نحكم بما أنزل الله وسنطبق الشريعة بعد أن
عطلها الطواغيت !

هذا يا بنى لا يكفي ! لا يكفي أبداً ليكون تجمعكم
المسلح هو دولة الخلافة !

أولاً : الخلافة لا تتعقد لأحد إلا باجتماع أغلب
المسلمين عليه، لا تتعقد بأن يتافق بضعة آلاف على أن
منهم خليفة ثم يجبروا المسلمين على مبايعته ..

شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه يقول :
"ولو قدر أن عمر وطائفه معه بايعوه، وامتنع سائر
الصحابة عن البيعة، لم يصر إماماً بذلك، وإنما صار
إماماً بمبادلة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة
والشوكة".

فهذا شيخ الإسلام ينقض داعش من أساسها، يقول بأن خلافتكم باطلة لا أصل لها، ولا يمكن أن تكون خلافة إلا بمبادرة جمفور عقلاه المسلمين !

نزلت على أبي قتادة كالصاعقة، وتابع مصطفى :

ثانياً : حتى بمبادرة جمفور المسلمين، لا يصير الخليفة الخليفة إلا لو كان معه سلطان وقدرة يقدر بها على الحكم، لكن ماذا نفعل بـ رجلٍ بايعه الناس وهو مسجون أو محاصر أو غير متمكن من الحكم؟ هذا لا تثبت له الولاية الشرعية أبداً، لأنه لن يستطيع أن يقيم حقوق المسلمين .

لو افترضنا أن داعش خلافة، فلماذا يبأيها أهل مصر؟
ماذا ستقيم داعش لرعاياها مصر من رعاية دينهم
ودنياهم؟

وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول : "والقدرة على سياسة الناس إما بطاعتهم له وإما بقهره لهم، فمتى صار قادرًا

على سياسة الناس إما بطاعتهم له وإما بقهره؛ فهو ذو سلطان مطاع إذا أمر بطاعة الله . . .

فأين أنتم من هذا وأنتم لا تكادون تنامون في بيوتكم آمنين فضلاً عن أن تحفظوا دول الإسلام لتنتولوا الخلافة عليها ؟! ها هو شيخ الإسلام يهدم خلافة داعش من أساسها للمرة الثانية !

وفوق ذلك !

فلا تجب البيعة على المسلمين ل الخليفة حتى تستقر له السلطة ولا ينazuه عليها أحد ..

ولهذا لم يبَايِع ابن عمر رضي الله عنه لابن الزبير رضي الله عنه مع امتلاكه جميع البلدان إلا دمشق وما حولها.

وقد سأله أحد الناس : يا أبا عبد الرحمن ما يمنعك أن تبَايِع أمير المؤمنين -يعني ابن الزبير-؟ فقد بايَع له أهل العروض، وأهل العراق، وعامة أهل الشام؟

فقال: والله لا أباليكم وأنتم واضعوا سيفكم على عواتقكم ت慈悲 أيديكم من دماء المسلمين!

فإن كانت البيعة لا تجب لابن الزبير إلا حين تستقر له السلطة، فهل تجب لأبي بكر البغدادي؟

اهتز أبو قتادة هزات عنيفة، وتضعضع قلبه من مكانه، وقال لنفسه لماذا عرّضتك لمثل هذه الشبهات المزلزلة؟ وأخذ على نفسه عهداً أن لا يعود لمناقش مصطفى، وحدّث نفسه بأنه سيستشهد قريباً فليحتفظ بيقينه ليلقى به ربّه، واستعاذه بالله من الشيطان الرجيم، ثلاثة ثم ثلاثة ثم ثلاثة! واستعد لينهي النقاش للأبد، وقبل أن يضع يده على لوحة المفاتيح ليكتب فوجيء بأبي العباس وأبي القعقاع يستأذنان ويدخلان الغرفة!

تذكّر أبو دجانة وجهاداً، ومقتله وضياعها، وتساءل أين ثراها الآن؟ وانقبض قلبه ثم انتفشت، ونظر لصديقه وقاديه، ونظر لحاسوبه، وقام ثم جلس، ثم قام.. وسار بطريقاً باتجاههما، وتعجب أبو العباس من حاله، وقال

له : ما بك ؟ ! فصمت أبو قتادة، ثم صمت .. ثم انفجر باكيًا !

دخل أبو قتادة إلى مفتی السرية ، الشیخ أبي الفضل ، ليعيده كما قال أبو القعقاع إلى رشده بعد أن استحوذ عليه الشیطان وتسربت إليه أفکار الصحوات الزنادقة .

جلس أبو قتادة حیران خائفاً ، سمع من أبي الفضل وعيّداً وتهديداً وترغيباً وتطبيباً ، وأیاتٍ من القرآن سردها ، وأحادیث أوردها ، وأقوال علماء أتى بها من بطون الكتب صدر بها جمله وختمنها ، ساعاتٍ استمر فيها النقاش ، لم يتركه بعدها الشرعي مفتی السرية إلا وقد اطمأن وتيقن أن رأسه غسلت مما دخلها بماء وتلّج وبرد ، وخرج أبو قتادة يستغفر لله مما كاد يقع فيه ، ويستعيد بالله من الشیطان الرجيم وهمزه ونفثه !

واستقبله أبو القعقاع بالخارج مستبشرًا متبسماً ، فاحتضنه أبو قتادة وبكى ، وقال له أبو القعقاع :

لا تبكِ ، لا ينبغي أن تبكِ ، فقط احمد الله على العافية .

وأحمده أن وفقني لمثلك يا أبو القعقاع .

تبسم أبو القعقاع وقال:

لكن لا تتم توبتك حتى تريح الأمة من هذا المنافق
الذي كاد يوقعك في فخاخ الشرك ، وكم أوقع قبلك
وكم سيوقع بعده !

فهم أبو قتادة ما يرمي إليه أبو القعقاع إلا أنه أبدى
التغابي وعدم الفهم فقطع أبو القعقاع الشك باليقين
وقال:

ستحرّ عنق هذا المنافق .

تردد أبو قتادة وقال وجلاً :

لا أستطيع يا أبو القعقاع ، هذا أمرٌ صعبٌ على نفسي !

ضحك أبو القعقاع ، ثم وضع يده على كتفه ، وأخذه ودخل به مرة أخرى للمفتى .

في المشفى، بعد العملية .. يتربّق الجميع أن تقوم آسيا، طال الوقت ولما تفق، بدأت تهذى وتغمغم بكلام غير مفهوم، قالوا من آثار البنج، ومع طول الوقت بدأ الشك والخوف فجاء الطبيب، فحصها فتغير وجهه، ثم قال أنها دخلت في غيبوبة مؤقتة، وتحتاج لعناية لتفيق منها !

انقبض قلب أمها ، وظهر التوتر على وجهي أبيها وأخيها ، وعلت غماماتها ، فاقتربت أمها لتميّز ما تقول .. أدنت أذنها من فم آسيا فوجدتها تهمس : آسر! آسر! أنا آسفة يا آسر!

صعقت أمها وتغيّر وجهها ، وقبل أن يسألها زوجها الحاج صبري ارتفع صوت آسيا وصار أكثر وضوحاً ، وهي تناادي بألم : آسر! آسر!

تغير وجه أخيها، وارتعد قلب أبيها، وقالوا لأنفسهم
هلوسات البنج وما نحن بتأويل الهلوسات بعالمين!
يرعى الناس الكذب ويعرفون الضغينة ويقتلون الحب
صبراً!

استمرت في هلوساتها، وعاد الطبيب ليتابع حالتها
فسمعها تقول : آسر

سألهם :

من آسر ؟ !

استيق خالد الإجابة فقال :

لا نdry ، إنها تهلوس !

تفرس الطبيب وجهه فعلم أنه لا يقول الصدق، تبسم
وقال :

عموماً آسر هذا شخص عزيز عليها ، وجوده سيساعد
على شفائها ، ولا أخفكم سراً .. الحالة في وضع

خطير .

ثم انصرف !

استمرت الصدمة، وصاحبها الصمت، وخالجها الألم
والحسرة والندامة ..

صرخت فيهم أم آسيا وأختها، وقالتا ستحضر آسر،
فانفجر خالد صارخاً في المقابل يقسم ويتهدد
ويتوعد، وذرف الحاج "صبري" الدمع ففوجى الجميع،
قالت أختها :

ستقتلونها بعنادكم، اللعنة عليكم !

وصرخت أمها وناحت حتى ظن من بالمشفى أن آسيا
ماتت، جاءت ممرضة تطمئن على نبض القلب، وذكرتها
بالله، وطمأنتها، ولا جدوى !

استمرت المعركة العائلية حتى خار الحاج "صبري"
وقال :

أحضروه !

فوجئ خالد، فسبّهم جميعاً وانصرف ..

اتصلت نور أخت آسيا بـأسر .. آسر أيتها الصديق أفتنا !
كان ينتظر بقلق إفاقه آسيا لتنتصل به بنفسها، سمع
صوت أختها فانصدع قلبه وظنّها تتعي أختها، سريعاً
أخبرته بالوضع فجاء لفوريه ولم يعقب ..

دخل وعيّن أبيها ترمّقه بقسوة ، وعيّن أمها تتوسل به
إلى الله ليشفّيها ، ونور تبكي متّالمة بجواره ، وعاد
خالد وعيّناه تقسمان بالبوار !

سمعها تنادي باسمه، فأحضر كرسياً وجلس عند رأسها
ينزف الدمع، يستعيذ بالله من شياطين الجن والإنس !

وضع رأسه بين كفيه ونظر إلى الأرض وصمت، يتذكّر
أخته جهاداً ويفكّر ماذا سيفعل، ثم ينتبه لآسيا فكأنها
شعرت به فتنطق باسمه مرةً بعد مرةٍ فتنهّأ حصون
قلبه جداراً بعد جدار، تأسفت له فبكى وارتعد ،
والأعين ترقّبه والقلوب لا ترحمه

بالليل أتت ففزعوا واطمأن، بكت فتذكّر لما كان يضحكها حينما تبكي فيفسد عليها بكاءها، فبكى وأن

..

استمرّ بجوارها يومين، لا يقوم من مكانه إلا للصلاحة، لا يأكل، ولا يشرب إلا ما يقيه الموت ..

كانت أمها تنام من التعب، وكان لا يغمض له جفن من الليل، قال لنفسه : ماذَا لو كنا في زمانٍ غير الزمان ومكانٍ غير المكان ؟ بأي ذنب يفعل بنا هذا وأنا لم أطلبك إلا حلالاً لا شبهة فيه ؟ يشهد الله على أنا ملي أنها لم تمس أناملك قط خشيةً منه ورهبة !

أخطأنا لأننا تواصلنا قبل الخطبة ؟ نعم .. لكن أردت أن نصلح خطأنا ونتزوج وأخذك بكلمات الله، فلم أر إلا حمقاً وجهلاً ، في مجتمع يقبل الحرام ويلفظ الحلال، لا شيء إلا لأننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون !

أي حبني تاريخ ميلاد سخيف على شهادة الميلاد من أن أتزوجك ؟! لله في خلقه شؤون !

فاضت عيناه دمّعاً حارّاً يخرّ على صفحات قلبه
فيحرقها، تئن حبيبته بجواره فيقول يا ليتنى كنت
تراباً !

أنشد يقول ما قاله قبله المجنون ، مجنون ليلى :

وقالوا لو تشاء سلوت عنها .. فقلت لهم فإني لا أشاء

وكيف وحبيها عَلِقْ بِقُلْبِي .. كما عَلِقْتْ بِأَرْشِيهِ دَلَاءُ

لها حبٌ تنشأ في فؤادي .. فليس له وإن زُجَرَ انتهاءً

مضت الساعات بين تفكيره وبكائه، وعويل أمها،
وغضب أخيها المكظوم، وندم بدّى على وجه أبيها كاد
يذهب بعقله، وذهول اختها عن الدنيا ..

فجأةً علت صافرة جهاز نبضات القلب، فزع آسر ونظر
إليها فوجدها تبتسم، وتنطق شيئاً خافتًا، جاءت
الممرضات يهرولن، والأطباء يسعون فزعين .. واقترب
آسر منها ليسمع ما تقوله ، ففتحت عينيها بصعوبة
بالغة، ونظرت إلى وجهه وقالت :

ربما في مكانٍ غير المكان ، وزمانٍ غير الزمان .. عند الله العليم الرحيم .

وتوقف النبض ، وارتقت الصافرة ، وانفجر الصراخ ، وهاج خالد وهجم على آسر فأبعده الأطباء والممرضون ، فخرج آسر مذهولاً ، يتهادي بين جدران المشفى ، يسير في الشوارع مذهولاً ، مشلول العقل ، عاجزاً عن الكلام ، فاقداً للوعي والسمع والبصر ، وتذكرة فجأة جهاد ، ثم آسيا ، ثم خرّ على الأرض مغشياً عليه في منتصف الطريق !

استقرت أم مالك ورها في القاهرة ، بعدما انسلتا في ظلمة الليل فارتدين من بور سعيد ، كان في جيب الحاج سلام خمسة آلاف جنيه ، وكانت رها قد ادخلت مثلهم ، وبمجرد وصولهما أنشأتا بهذا المبلغ الضئيل عربة للمأكولات السورية في حي السيدة زينب ، واستأجرتا حجرة ليست بأفضل من أختها السابقة ، لكن يكفي أن ليس فيها الحاج سلام .

وكعادة الشاميين ، لا يفشل لهم مشروع طعامٍ قط !
 سيما مع شعبٍ يوقد الأكل ويحترمه مثل الشعب المصري ، فبدأت العربية منذ يومها الأول تجذب الزبائن ، وكأنَّ الزمان يري أمِّ مالكٍ ورها بسمة خفوتة لا تقاد تستقر ، وحال لرها بسذاجة فطرتها أنَّ العربية تتسع شيئاً فشيئاً ، وأنها فتحت لها فرعاً آخر في باريس ، وثالث في دبي ، ورابع في جمصة .. ثم أفاقت وتذكرت أنها في يومها الأول !

ومع ذلك لم يمرَّ أسبوعٌ إلا وقد توسيعَت العربية ، وتضخمَ المشروع ، فاشترت أمِّ مالكٍ كرسين ومنضدة صغيرة ليجلس عليها الزبائن أثناءِ الأكل ، كما اشتُرت دلواً كاملاً من المدخل !

ومرةً في الصباح قبل أن يأتي الزبائن ، جلست أمِّ مالكٍ تحكي لرها قصة زواجها من أبيِّ مالك ، وعجبَاً أنَّ انجذبت رها لقصةِ من قصصِ أمِّ مالك ، قالت أمِّ مالك :

مات أبي وأنا ابنة خمس سنوات ، وتقديم أبو مالك ليخطبني من أخي الأكبر غسان ، وكنت وقتها بنت اثني عشر عاماً ، لم أرد أن أتزوج ، وأبغضت أمي مالك بغضنا شديداً ، لكنك تعرفين أن النساء على أيامي لم يكن لهن رأي ، فتزوجته رغم كل شيء .

صمنت فقالت رهى بفضول :

ثم ماذا ؟

تبسمت أم مالك وتابعت :

ثم صار حياتي كلها ، الحب يا بنيتي لا يأتي من أول نظرة ، أنا لا أعترف بهذه السخافات ، الحب بيت جميل يبنيه الزمان لبنة لبنة ، بطول المعاشر والملازم ، بكل بسمة نتبسمها معًا ، وضحكة نضحكها معًا ، وأكلة نأكلها معًا ، وشربة نشربها معًا .. الحب عمر وعشرة .

الفصل الرابع

مرّ شهر، ورفع المؤذن ظهر عاشوراء . .

وفي سيناء كان أبو قتادة يسأل أبا العباس، أثراًنا على حق؟!، تعجب أبو العباس وقال أفي ذلك شك؟!

تابع أبو قتادة حشو مسدسه وتهيئته للعملية، ثم نظر للمقداد وقال :

أتعلم؟ لو لم نكن على حق فقاع الجحيم ينتظرنا !

ضحك أبو العباس كثيراً، ثم صمت، ثم ضحك قليلاً، ثم قال :

إن كان قاع الجحيم ينتظر من يطبق شرع الله، فلمن خلقت الجنة؟

صمت أبو قتادة قليلاً، وتابع حشو مسدسه، ثم قال :

ربما خلقت لراعي غنم يسierz به منفرداً في شعاب الجبال، يقتات بالبانها، ويأكل من لحومها، ويده بيضاء !

قال أبو العباس : لا خير في يد بيضاء لم تتخضب بدماء الكفار !

وكان آسر قد نزل من بيته يومها، ليسير - كعادته مؤخراً - وحيداً في شوارع القاهرة، يستلذ باستعادة ذكريات آسيا، يغمض عينيه ليرى صورتها، منقوشة برقة على جفنيه من الداخل .. أحياناً يسمع صوتها فيبتسם، ويستيقظ إلى النوم .. حيث اللقاء !

ثم يقاطعه طيف جهاد، ترى ما الذي حدث؟ أين هي؟ أثبتت لقاء قبل يوم القيامة؟ كيف أصل إليها ومن أين أبدأ؟

توجه إلى عربة طعام سورية، اعتاد الأكل منها منذ أسبوعين، في حي السيدة زينب !

ما أن وصل حتى غمزت أم مالك رهى وهي تحضر الساندويتشات، وقالت بمكرٍ : قد أتى العريس يا عروسة !

ضحكـت (المعلمة) رهـى وضربـت كـتف خـالتـها!

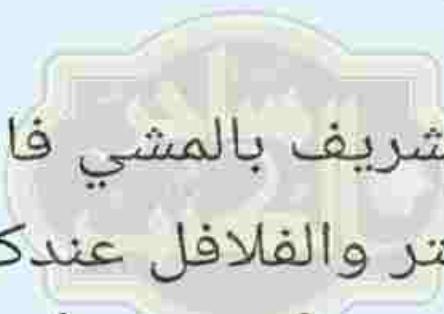
جلس آسر شارداً على أحد الكراسي، ونزل أبو قتادة وأبو العباس من الشقة بعد أن أعدا سلاحهما، واستعد الشيخ مصطفى الشريف لدرسه بعد العصر في المسجد المجاور لمسكنه بسيناء، جاءت رهـى تـسأـل آسر : ماذا ستـأكل الـيـوم أيـها الـمـلـيـح؟ فـقـال أبوـقتـادة للـمـقـادـاد .. تـذـكـرـ أـنـي قـلـتـ لـكـ يـتـظـرـنـا الـجـهـيمـ إـنـ كـنـا عـلـىـ خـطـأـ!

وضعـالـشـيخـ مـصـطـفـىـ الشـرـيفـ عـطـرـهـ، وـمـرـتـ نـسـمـةـ فـاسـتـنـشـقـتـ رـهـىـ طـيـبـ رـائـحةـ آـسـرـ، وـقـالـ أـبـوـ العـبـاسـ إـنـ اللـهـ لـاـ يـضـيـعـ الـمـطـبـقـيـنـ لـشـرـعـهـ، وـقـالـ آـسـرـ : مـنـقـوـشـةـ زـعـترـ وـسـانـدـوـيـتشـ فـلـافـلـ، اـبـتـسـمـتـ رـهـىـ فـأـسـرـعـتـ الدـرـاجـةـ النـارـيـةـ بـأـبـيـ قـتـادةـ وـأـبـوـ العـبـاسـ .. وـخـطـتـ قـدـمـاـ مـصـطـفـىـ الشـرـيفـ عـلـىـ سـالـمـ الـعـمـارـةـ بـبـطـيـءـ وـهـوـ

يراجع ورقة العناصر التي سيلقيها في درس العصر،
 قالت رهى لأمها : منقوشة زعتر وواحد فلافل
 يامووو! وبحركة مفاجئة سحبت أحد الكراسي
 وجلست أمام أسر على نفس الطاولة ! فوجئ أسر ..
 فخرج مصطفى الشريف من بوابة العمارة، قالت رهى :
 كيف حالك أيها المليح؟ فانتفض جسد أبي قتادة لما
 رأى الشيخ مصطفى بعد طول غياب !

قال أسر : بخير الحمد لله ، فرد أبو قتادة على أبو العباس : لن أستطيع .. اقتله أنت ! بغضِّي ردت رهى : أهكذا علموك أن تكلم الفتيات ؟ تبسم أبو العباس وقال : بل ستقته أنت ! وتبسم أسر ورد : آسف أنا لم أعتد على الحديث مع الفتيات .. ، تعجبت رهى وقال أبو قتادة أقول لك لا أستطيع! فرد أبو العباس : حظم صنم الشيطان داخلك، اقتله يا أبي قتادة .. اقتله فإنه عدو للله ! رد أسر قبل أن تنطق رهى : كيف كان يجب أن أرد؟ ، فقال أبو قتادة ودموعه تنهمر .. لا أستطيع .. ومشى مصطفى الشريف تجاههما وهما مختبئان،
 قالت رهى : الفتنيات تحب الردود التي تفتح كلاماً

آخر، لا التي تنهي الحديث! كان ينبغي أن تقول : بخير وأنت؟ ضحك آسر، فقال أبو العباس بحدة لأبي قتادة : هكذا لن نلحق به ، هيا اقتله ! أجاب أبو قتادة : اقتله أنت! ، فقال آسر : عفوا .. كما قلت لك لا خبرة لدى ، قالت رهى : أرأيت ؟ هذا رد آخر لا تحبه الفتىات! ، رد أبو العباس : أقسم أن لن يقتله غيرك ! لا تجعل لغير الله سلطاناً عليك ..



واستمر مصطفى الشريف بالمشي فاقترب ، وتبسم آسر وقال: يبدو أن الزعتر والفلافل عندكم مشغولان اليوم ، فضحك رهى وقالت: أنا فقط أراك تأتي هنا يومياً منذ عشرة أيام ، أحياناً تأكل وأحياناً تبكي صامتاً تظن أن لا يراك أحد ، ودائماً تشرد .. ! ، ناول أبو العباس المسدس بعنف لأبي قتادة وقال: هيا اقتله! اقتل الكافر الزنديق الذي نذر حياته ليحارب دولة الإسلام ويضل الناس عن دين الله!

اهتزَّ قلب آسر بعنف ، وقبض أبو قتادة على مسدسه بقوة وأغمض عينيه يسمّي الله ودموعه منهمرة ، وفجأة تذكّر جهاذاً فارتاع وارتعداً ، ثم فتح عينيه

فرأى الشيخ مصطفى الشريف، بوجهه أسمراً صبوراً
ولحية مذهبة تتخلاها شعيرات بيضاء، وجسد نحيل
منهك، ولسان كما عهده لا يكفي عن ذكر ربه، ومصحف
وسوالٍ في جيبه الأعلى!

ذرَفَ آسر دمعةً رغمَّ عنه، وزادت قبضةُ أبي قتادة
على مسدسه وزادت دموعه، وقالت رهى: ما اسمك؟!
فرد: آسراً، وهز أبو العباس كتف أبي قتادة وقال توكل
على القوي المتيين، فقالت رهى: آسراً! ارفع عينيك من
الأرض!، وصوبَ أبو قتادة مسدساً بين عيني مصطفى
الشريف، رفع آسر عينيه فلاقت عين رهى، فاستقرت
الرصاصة في رأس مصطفى الشريف، وانفجر أبو
قتادة بالبكاء، وطار أبو العباس بالدراجة النارية وخلفه
عليها أبو قتادة، وخزَّ الشيخ مصطفى فسالت دماً
على التراب، في يوم عاشوراء وهو صائمٌ في طريقه
لصلاة العصر!، وقالت رهى لآسر : كلنا لديه آلام..
والسعيد من يحسن دفنها، وقال أبو قتادة للمقداد وهو
ينتحب ويبيكي : الجحيم ينتظرنا !

ورد آسر : أخشى أن يزول الألم، لم يبق لي تذكرة إلا
ال الألم!

تمت.

للتواصل مع الكاتب :

Facebook

<https://www.facebook.com/H.bokhary>

<http://ask.fm/HassanAlbokhary>: Ask

Top of Form